رواية
يقين
YAQEEN
دعاء سعد
كتوباتي
kotobati

يقـــين

YAQEEN

دعـــــاء سعد

روايـــــة

الكتـــــــــــاب: يقين YAQEEN

تـــــــــــأليف: دعاء سعد

النوعيـــــــــــة: رواية اجتماعية

الإصـــــدار الأول: 2023م

صدر عن كتوباتي: 2024م

التصمـــيم السابق: خولة أعبيد

التنسيق والتصميم: مكتبة كتوباتي

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.

وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

الفهرس

إهداء 6
مقدمة 7
جمال فلسطين 8
أسطورة تنين الجليد 11
طروادة 16
خمسة أقدام تفصلنا 21
الزنبق الأبيض 28
عيون المها 37
طائر الهامّة 42
الدُمية 48
شعرة من الأسد 53
حارسة الإوز 61
حبة البازلاء 68
الأمير الضفدع 75
جرّة السمن 81
الملك لير 87

الصياد 95

ملك الموت 101

الهيدرا 106

العناد 112

بريرة..... 116

رسائل متأخرة 121

إنني أعود إليك مثلما يعود اليتيم إلى ملجأه وسأظل أعود.

— غسان كنفاني ❤

إهداء

إلى

الأرواح التي تعلق ذاتها بالماضي، أخبرك أن تتحرري

مقدمة

لا أُجيد كتابة المقدمات ولكن يمكنني أن أقدم لكم نصيحة:
لا تتركوا الفرص تذهب من بين أيديكم، تمسكوا بها بقوة.

الفصل الأول

جمال فلسطين

التقينا صدفة في مقهى، كنتُ أحتسي فنجاني من القهوة الخالية من السكر.

سألتني مرة: لماذا أفضلها بدون سكر؟

أجبتك حينها: إن القهوة أساسًا خلقت لتكون خالية من السكر.

ولكنك أخبرتني: أجابة خاطئة.

سألتُ متعجبة: وما هو الجواب الصحيح إذاً؟

أجبتَ مبتسمًا: كيف للسكر، أنّ يشرب السكر.

أحمرت وجنتي خجلًا وأخبرتك: بعيدًا عن القهوة، أيمكنني أن أسالك سؤالًا مهمًا؟

نظرتَ ليّ باهتمامٍ: اسألي ما شئت، سأحاول أن أجيب.

أخبرتك بحزن، وأغرقت عينيّ بالدموع: ما ذنب فلسطين؟

أخبرتني بألمٍ وتنهيدةٍ تدل على القهر: ذنب فلسطين يا يقين، أنها جميلة جدًا، لدرجة أن لا أحد من إخوتها تحمل جمالها، كما حدث تمامًا مع سيدنا يوسف و إخوته، كل ذنبه أنه كان جميلًا، وكل ذنبه أن أباه أحبه أكثر من إخوته.

سألتك بهلع: هل سينجلي الحزن يومًا ما عن فلسطين؟

فتخبرني: أتعلمين يا يقين، أن فلسطين كانت دومًا فريسة الذئب، ولكنها في كل مرة كانت تحارب، وتقاوم وتنتصر، فلا تبتأسي، سينجلي كل هذا، مثلما حدث من قبل سيحدث من جديد.

أسالك بخوف: ولكن إلى متى؟

أخبرتني بقلبٍ ينبض باليقينٍ: يا يقين قال الله تعالي في كتابه العزيز {متى نصر الله ألا أن نصر الله قريب} ألا يكفيك أن الله يطمّئن قلبك، ويخبرك أن النصر قريب.

أخبرك بحسرةٍ، وأحبس دموعي: أعلم ولكن ألا ترى، ما يحدث؟ يقتلون الأطفال ويقصفون المستشفيات، هل هذا هو العدل برأيك، لم يكن أي من الذين قتلوا مجرد رقم، لقد كانوا قلبًا وبيتًا وحلمًا وحياةً، أطفالًا بعمر الزهور، زهور صغيرة فحسب، كان كل أمالها أن يكون لها وطن آمن، إن يكون لهم حياة مجرد حياة، لم يطلبوا أكثر من ذلك، ولكن أكثر ما يؤلم أن أحدهم سأَل :

-ماذا تريد عندما تكبر يا عمو؟ أجابَ: يا عمو لا أحد يكبر في فلسطين، لا أحد يكبر يا بدر لا أحد. وهنا أنفجرت باكية رغمًا عني.

تحاول إن تهدئَ من روعي: أَلِمَ يقل الله في كتابه العزيز {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون} ألا تعلمين أن منزلة الشهداء عظيمة وأن الشهيد يأخذ سبعين من أهله إلى الجنة، أي فوز وأي مكانة يا يقين وأن الله يقبض أرواحهم عند أول ألم مثل قرصة صغيرة، ألا ترين يا صغيرتي أنهم نجحوا في الاختبار، أحبهم الله لدرجة أنه يريدهم بجواره، أحبهم لدرجة جعلهم شهداء، ألا تعلمين أن الاطفال يكفلهم سيدنا إبراهيم والسيدة سارة في الجنة، أي منزلة وأي عظمة هذه؟

أقاطعك وأنا أمسح دموعي: أعلم ولكني لم أعد أتحمل مقدار الظلم، أُ كل هذه الرياح ضد جناح عصفور؟

تخبرني بكلّ صبر: فصبرٍ جميلٍ والله المستعان يا يقين، ما يؤخره الله فهو لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو سبحانه جل جلاله، ما سنفعله هو أن نصبر، يؤيد الله بنصره من يشاء.

تهزمني مجددًا ولا أجد ما أقول، فأصمت وأحتسي قهوتي بهدوءٍ، وينصرف كل منا إلى عمله وحياته، ومازلنا ننتظر أن نلتقي صدفة مرة أخرى، وأن تخبرني حكاية جديدة.

الفصل الثاني

أسطورة تنين الجليد

أهذا القدر أم مجرد مصادفة؟ لا أعرف حقًا. التقيتك مجددًا وكأن هذا اللقاء مقدرًا أن يحدث. كنت جالسة في محطة الحافلة، أنتظر الحافلة الخاصة بالعمل، الانتظار مزعج، حتّى لو كان انتظارًا قصيرًا.

جئت من بعيد وأخبرتني: هل كل صباح جميل هكذا؟ أم لأنك فيه؟

أجبتك بسؤالٍ: ما الذي أتي بك إلى هنا؟

أجبتني: أنتظر حافلة المحطة التالية.

أخبرتك بحيرةٍ كلّيةٍ: ولكني لم أراك تحضر في أي صباح من قبل.

باغتني بسؤال: وهل تستيقظين مبكرًا، كل صباح؟ لا أظن ذلك.

أحرجتني جدًا فأنا لا استيقظ مبكرًا في العادة، ولكن لا أعرف ما الذي دفعني للنهوض باكرًا.

أخبرتني بودٍ: لا تشعري بالإحراج، الأميرات لا يستيقظن مبكرًا.

وبعد ذلك صمتَ، ومن ثم أخبرتني أنك ستحكي ليَّ أسطورة من الأساطير، أسطورة تنين الجليد، وأخبرتك أني سأستمع.

سألتني: ستنصتين؟

أجبتك: بالطبع سأفعل.

أجبت: حسنًا. كان هناك في عصر من العصور القديمة، فتاة تحب الشتاء، فعندما يحل البرد يأتي تنين الجليد.

قاطعتك بفضولٍ: هل كانت تعلم لماذا يأتي تنين الجليد؟

أجبتني: لا، أسئلة كهذه لم تكن تهمها، فطالّما أن الثلج والبرد وتنين الجليد يأتون في موعدهم فهي سعيدة، كانت من أطفال الشتاء فقد ولدت في أسوأ فترة تجمد قد يذكرها أحد، يقول أهل قريتها أن برودة ذلك التجمد الرهيب، هي منّ قتلت أمها، وأن البرد أصبها أيضًا وهي في الرحم، بشرتها كانت زرقاء شاحبة ولها ملمس الجليد، وطيلّة سنواتها الست التي مرت لم تعرف الدفء لقد مسها الشتاء وجعلها له.

سألتك بفضول: هل كانت طفلة عادية؟

أجبتني: كانت طفلة تفضل الانعزال، فتاة صغيرة جادة، عندما كانت في الخامسة داست مسمارًا بالخطأ...

قاطعتك: يا لها من مسكينة. هل بكت؟ هل تألمت؟

أجبت: لا لم تفعل أي من هذا، نزعتَ المسمار وعادت إلى البيت وفقط قالت أبى لقد جرحت قدمي. حسنًا. فلنكمل، في الصيف يأتي العم هال وهو راكب تنين في خدمة الملك، لأن التنانين لا تطيق البرد كما تعلمين، هي لا تحب هال بالرغم من طيبته، فهذا معناه أن الشتاء بعيد، أباها يحبها كثيرًا ولكنها لم تبادله الحب أبدًا، ليس في قلبها شيء له أو لأي أحد آخر، تشبه أمها كثيرًا ولكنها لا تتمتع بشيء من دفئها، أنها طفلة الشتاء مثلك تمامًا.

سألتك باستغراب: مثلي كيف؟

أجبتني: لا تشعرين بأي مشاعر لأي أحد، حتى و إن كان حب هذا الشخص واضحًا.

أجبتُ مستطردةٍ: لا، أنا أتحكم في مشاعري وحسب، هل يجوز أن أرمي مشاعري لكل عابر سبيل؟

تابعتَ: حسنًا، انتصرتِ فلنكمل قصتنا، لقد رأت تنين الجليد في السماء ألف مرة وفي سن الرابعة رأته على الأرض لقد كان أكبر الضعف من التنانين الحربية، لونه أبيض بلوري، جسمه مغطى بالصقيع الأبيض الهش، عيناه صافيتان عميقتين وجليديتين. كانت تواصل بناء قلعتها الثلجية، عندما حط بقربها، أما هي لم تتحرك. غادر التنين لكنه عاد مرة أخرى ولمسته كانت

خائفة أن يحترق ولكن لم يحصل، في العام القادم حلقتَ بتنين الجليد لأول مرة، طيلة حياتها والحرب مشتعلة، في عامها السابع هاجمت مملكة الجنوب مملكتهم وكانت الأوامر بالنزوح إلى الشمال وكانت خسائر الحرب كبيرة، وفي الصيف وعندما هاجمت تنانين مخيفة حراشفها داكنة أحدها له لون الصدأ والآخر لون الدماء الجافة والثالث بلون الفحم، هربت إلى الغابة واختبأت في أحد الكهوف حيث البرد، ووجدت تنين الجليد وضمته إليها، وقالت له: فلنغادر من هنا خذني إلى حيث الشتاء الأبدي، وبينما هي في السماء سمعت صراخ أبيها، ترقرقت الدموع في عينيها وبكت وأخبرت تنين الجليد: أرجوك أنقذ أبي، أرجوك ساعدني. دارت معركة بين التنانين وتنين الجليد وهزمتَ التنانين وأختفى تنين الجليد، أو بالأحرى ذاب، تنين الجليد لا يتحمل الحرارة، وفي النهاية أصبحت فتاة عادية تبكي وتتألم، وكإن تنين الجليد كان لعنتها.

سألتك في شغفٍ: وماذا حدث لهم بعد ذلك، هل صدقها أحد؟

أجبتني: بالطبع لا، تنانين الجليد لا تظهر في الصيف، غادروا شمالًا لان مملكة الجنوب أخذت أرضهم ولكن في النهاية عادوا واستردوا أرضهم مجددًا. أتعرفين ماذا قال والدها لها؟

سألتك: لا أعرف. أخبرني؟

أخبرتني: قال لها: "خسرت هال وأرضي ولكني استعدتك."

استأذنت مني لقد وصلت الحافلة الخاصة بك: سأرحل الآن، لا تقولي وداعًا يا يقين فهذا يقتل أمل اللقاء، قولي إلى اللقاء، ربما نلتقي مجددًا من يدري. دائمًا تتركني، دائمًا تودعني، وصلت حافلتك أولًا وأنا ما زلت أنتظر، الانتظار مزعج، هل سنلتقي مجددًا؟ لا أعلم ربما. دائمًا تجد طريقة أو هناك دائمًا طريقة لمقابلتك ولكن متى لا أنا أعرف ولا أنت.

الفصل الثالث

طروادة

في يوم الأربعاء أردت الذهاب للتنزه قليلًا، لفت نظري متحف للفن اليوناني، كان لديّ فضول جمَّ حول الدخول إلى المتحف ورؤية هذه الحضارة العظيمة، وبينما أنا أدخل على أعتاب المتحف، و إذ أراك من بعيد تتأمل في لوحة ما، زاد فضولي ولكني جمّحت حماستي، وخطوتَ نحوك بخطوات ثابتة.

حينها أخبرتك: لقد انتظرتك يوم السبت الفائت ولم تأتي للمقهى قط، وذهبت الأحد ولم أجدك. الاثنين سألتَ عنك النادلة ولكنها لم تَراكَ، الثلاثاء ذهبت باكرًا وانتظرتك ولم تأتي، وملّلت الانتظار ولم أعد أنتظر ولا أذهب إلى هناك.

أخبرتني بابتسامةٍ هادئةٍ: اللقاء الذي تخططين له، لن يحدث يا يقين، أتعلمين لا يحدث ما نخطط له، يحدث الأمر عشوائيًا فحسب، لا تخططي ولا تنتظري، فقط عيشي اللحظة بلحظتها فقط.

أخبرتك بحماس: لديّ خبر سيفرحك كثيرًا، لأنه أفرحني أنا.

أخبرتني بتهذيبٍ: وأنا كلّي أنصات، ولكن يا يقين أ كل ما يفرحك يفرحني؟ لا تهتمي فقط أخبريني.

أخبرتك بفرحةٍ عارمةٍ: لقد صنعوا هدنة يا بدر، ألا يفرحك هذا، لقد أوقفوا الحرب.

ولكنك استقبلتَ خبريّ بوجومٍ مفاجئٍ: الهدنة يا يقين مجرد خدعة، لكي يستعد الطرف الآخر، ويأخذ وقته في التخطيط، ومن ثم الهجوم بعد ذلك، الهدنة الخدعة الأكثر استهلاكًا في التاريخ، ولكننا حمقى ننخدع بها، في كل مرة.

بدتَ على ملامحي شيئًا من البلاهة وسألتك في عدم فهم: لم أفهم، ماذا تقصد؟

أجبتَ في حزم: أتعرفين الهدنة مثل صياد يحاول إن يصطاد فريسته، ينتظر فقط اللحظة المناسبة، ينتظر أن تعطيه الأمان ومن ثم ينقض عليها فور استسلامها.

ثم أضافتَ سائلًا: ألا تعرفين ما حدث في حرب طروادة؟

أخبرتك: بالطبع أعرف، لقد كانت إلياذة هوميروس الشعَّرية، لقد كانت حربًا نبيلة دفَّاعًا عن الشرف.

ضحكتَ وأخبرتني: حسنًا. سأقص عليك الحكاية من أولها، كانت حرب إسبارطة على طروادة نبيلة في ظاهرها فالشّرفُ أحد الأشياء التي يستميتُ

النَّاس في الدفَّاع عنها، كانت "هيلين" امرأة فاتنة وكانت هي سبب تلك الحرب، فقد كانت متزوجةً من أخ ملك إسبارطة، وأحبّتْ وهي معه ابن ملك طروادة، وهربت معه إلى مملكة أبيه، فأعّد الإسبارطيون جيشًا جرارًا، وركبوا البحر، وتوجّهوا إلى طروادة، ولمّا وصلوا ضربوا حولها حصارًا خانقًا، وخرج ملك طروادة مع ابنيه، البكرُ قائد الجيش، وولي العهد، والذراع الأيمن لأبيه، والأصغرُ عشيق هيلين، ليسمعوا مطالب الإسبارطيين. ويتناقشوا كيف يمكنهم الفكاك من هذه الحرب، واقترح عشيق هيلين أن يتبارز مع زوجها، فإن قتله عاد الإسبارطيون إلى مدينتهم، و إن قُتل يكون قد ثأر لشرفه.

أعجب هذا العرض زوج هيلين، لأنه كان يري أن خصمه لقمة سائغة. ولكن أخاه يا يقين قال له: أوتحسب أني جهّزتُ هذه الجيوش لأجل زوجتك الخائنة، لقد أتيتُ من أجل طروادة يا عزيزي.

أخبرتك باندهاشٍ: لم يسبق ليّ أن فكرت في هذا الأمر بهذا الشكل من قبل.

أخبرتني: لا عليك، لم يكن لأحد أن يفكر في هذا، لولا أنّ حصلت خدعة حصان طروادة الشهيرة، سأخبرك ما حدث.

أخبرتك وكلّي أنصات: سأستمع.

حدثتني: الإسبارطيون ابتكروا فكرة من أجل إنهاء الحرب الطويلة، حيث صنعوا حصانًا من الخشب أجوف من الداخل وملؤه بعدد كبير من المقاتلين، وتظاهر باقي الجيش بالرحيل ولكنهم لم يرحلوا، بل أختبؤوا في مكان ما، ووضعوا الحصان أمام المدينة كهدية، كصلح وهدنة، فقبل أهل طروادة إدخال الحصان واستلامه كعلامة على السلام والهدنة، وأقام أهالي طروادة الاحتفالات بالسلام، وبعد أن ثملوا واطمئنوا، هنا كانت الخدعة هاجم الإسبارطيون عليهم وقتلوهم واحتلوا طروادة، أ لِمَ أخبرك الهدنة خدعة؟

أخبرك: أنت تعرف دائمًا كيف تحلل الأمور.

ابتسمتَ وهمستَ ليّ: أخبرك سرً خطيرً؟

أتسعت حدقتي عيناي: أخبرني.

أجبتَ: هل تعلمين أجمل خدعة وهدنة في حياتي؟

بدت عليَّ علامات التعجب: لا أعلم ،قل ليّ إذًا.

همستَ: أنها أنتِ.

اخجلتني حقًا، لم أعرف ماذا أقول، ولكنك أضافت معللًا وتنهدت: ولكنكِ هدنة خطيرة يا يقين، يومًا ما سأفقد حياتي، أو أفقدك، أنتِ طروادة خاصتي.

أجبتك بخجل: أنت تخجلني، لا أعرف ماذا أقول؟ حسنًا. أنا منّ سأودعك الآن، ربما نلتقي مجددًا.

أخبرتني: دائمًا تهربين، ولكن لا بأس أنا لا أستسلم، في الحرب أما أنّ تفوز وأما أنّ تقتل، لا وجود للخسارة يا يقين.

تركتك ورحلت على أمل اللقاء مجددًا، لن أنتظر كما أخبرتني، سأترك تدابير القدر تقودني، ففي النهاية دائمًا ما تقودني إليك. و إن انتظرتك لن أجدك، لقد حاولت وفشلت، وكإن اللقاء مقدر ولن يحدث أن أردته. غريب جدًا ما نريده، لا يأتي حين نريده، بل يأتي حين نسئم وينطفئ شغفنا به، ولهذا لن أنتظرك، أكره الانتظار، الانتظار مزعج.

الفصل الرابع

خمسة أقدام تفصلنا

ذهبت إلى المكتبة، يوم الاثنين، لأعيد رواية، فرغت من قراءتها، هذه الرواية أثرت بيّ نوعًا ما. بالمناسبة، لم أعد أنتظرك أو أبحث عنك. أيقنت أن لقائنا مقدرًا، لا يعتمد على زمان أو مكان.

فكلّما تجاهلتك وجدتك، لقد عرفت سرّ الوصفة السحرية، إن لم أفكر بك، أجدك أمامي. وقد تم ما أردتهُ، وجدتك في المكتبة، جالسًا وحيدًا، تتصارع مع كتاب أو تقرأهَ، لم أعلم أنك تحب القراءة إلا الآن.

تقدمت إليك، ووقفت خلفك، وسالتك بكل ودٍ: كيف حالك؟

أجبتني: بخير، وأنتِ؟

أخبرتك: بخير، أيضًا.

وسألتك بفضول: أي كتاب تقرأ؟

نظرتَ لعيوني وأجبت: عينيكِ!

نظرت إليك بحدة: أنا لا أمزح، توقف.

ابتسمتَ ابتسامة هادئة: حسنًا. سأتوقف، ماذا تفعلين هنا؟

حاولت عدم أبداء غضبي: أتيت لإرجاع رواية "على بعد خمسة أقدام " كنت أنهيت قرأتها.

نظرت إليَّ باهتمام: عن ماذا تتحدث، ولكن لحظة أ ليس هذا فيلم سينمائي؟

ابتسمتُ بانتصار: أجل بالطبع ولكنهُ مقتبس عن رواية في الأصل. يبدو أني صاحبة حكاية اليوم. هل ستستمع ليّ، كما أفعل أنا؟

أخبرتني بحماس: كلّي أنصات، لكِ حرية السَّردُ.

بدأ حديثي بأخبارك، باختصار للقصة:

قصة Five Feet Apart

ستيلا جرانت مريضة بالتليف الكيسي تستخدم وسائل التواصل الاجتماعي بنشاط للتعامل مع مرضها ومحاولة عيش حياة طبيعية، تلتقي بمريض آخر من مرضى التليف الكيسي، ويل نيومان وسرعان ما يطوران مشاعر بعضهما البعض، يجد ويل فيديوهات ستيلا على "يوتيوب"، حيث تناقش ستيلا التعايش مع مرض التليف الكيسي، فتن ويل بها وشاهد كل فيديو نشرته. تقضي ستيلا البالغة من العمر سبعة عشر عامًا معظم وقتها في المستشفى كمريضة مصابة بالتليف الكيسي. حياتها مليئة بالروتينيات والحدود وضبط النفس، وكلها تخضع للاختبار عندما تقابل ويل، وهو يعاني من نفس

المرض، يقعان في حب بعضهما، يتم الاحتفاظ بمرضى التليف الكيسي بشكل صارم على بعد ستة أقدام (1.8 متر) على الأقل لتقليل مخاطر العدوى المتقاطعة، حيث يمكن أن يكون الإصابة بالعدوى البكتيرية من مرضى التليف الكيسي الآخرين مهددة للحياة، من خلال القيود التي تملي عليهم الحفاظ على مسافة آمنة بينهم، ومع تكثيف الاتصال بينهما، يزداد إغراء إلقاء القواعد خارج النافذة واحتضان هذا الانجذاب، الحب ليس له حدود.

اندهشتَ كلّيًا: مدهش، وما أعجبك أيضًا؟

أخبرتك هناك بعض الاقتباسات، التي أعجبتني، سوف أخبرك بها :

"إذا كنت سأموت، أود أن أعيش بالفعل أولًا".

"إلى متى سأعيش حياتي خائفًا من ماذا لو؟"

"لقد سئمت من العيش بدون عيش حقًا"

"كل شخص في هذا العالم يتنفس هواء مستعار".

لا تفكر فيما فقدته، فكر في المبلغ الذي يجب أن تكسبه، عش، ستيلا."

"لقد سئمت من العيش بدون عيش حقًا، لقد سئمت من الرغبة في الأشياء، لا يمكننا الحصول على الكثير من الأشياء، لكن يمكننا الحصول على هذا "

"إذا علمني هذا العام أي شيء، فهو أن الحزن يمكن أن يدمر أي شخص"
"أنا لا أذهب بعيدًا، سأكون دائمًا هنا، على بعد شبر واحد فقط أعدك".
"آمل أن حياتي لم تكن من أجل لا شيء"
"إذا كان هذا هو كل ما نحصل عليه، فلنأخذ ذلك، أريد أن أكون شجاعة وحرة، إنها مجرد حياة سوف ينتهي قبل أن نعرفه."
"أعلم في تلك اللحظة، على الرغم من أنه لا يمكن أن يكون أكثر سخافة، أنه إذا مت هناك، فلن أموت دون الوقوع في الحب".
"لا أريد أن أتركك، لكني أحبك كثيرًا للبقاء".
"أنتِ تخيفني"
ستيلا "ماذا؟ لماذا؟"
"أنتِ تجعليني أريد حياة لا أستطيع أن أحصل عليها. "أعرف بالضبط ما يعنيه، هذا هو الشيء الأكثر رعبا الذي شعرت به".

"نحن بحاجة إلى تلك اللمسة من الشخص الذي نحبه، بقدر ما نحتاج إلى الهواء للتنفس. لم أفهم أبدًا أهمية اللمس ولمسته، حتى لم أستطع الحصول عليها."

"لم يؤلم، لم أكن خائفًا."

"أنظر إلى أضواء العطلة من بعيد، متلألئة مثل النجوم، تناديني. هذه المرة أرد."

"وأنا أدرك أنني أفعل الشيء الوحيد الذي قلت لنفسي طوال الوقت أنني لن أفعله. أريد شيئًا لا يمكنني الحصول عليه أبدًا"

"أعتقد أن الرسوم الكاريكاتورية المرسومة جيدًا يمكن أن تقول أكثر مما يمكن أن تقوله الكلمات، كما تعلم؟ يمكن أن يغير العقول."

"لم يبق لدي شيء لأقدمه. لم يتبق لدي أي شيء، أقوم باستقامة، وأخذ نفسًا قصيرًا آخر يائسًا، مدركًا في أعماق صدري أنه آخر نفس أتنفسه على الإطلاق، وأعطيتها لها، وأعطيتها كل شيء لها، الفتاة التي أحبها. إنها تستحق ذلك."

"إذن، هل خطتك للموت ذكية حقًا حتى تتمكن من الانضمام إلى فريق المناقشة من الموتى؟"

"لأول مرة أشعر بثقل كل بوصة، كل ملليمتر، من ستة أقدام بيننا".

"نحن نبتسم لبعضنا البعض، وعلى الرغم من وجود مليون سبب يمنعني من ذلك، بالنظر إليها الآن، لا يسعني الشعور وكأنني أقع في حبها".

"استلقي على ظهري، أضع يدي خلف رأسي، الغرفة تبدو هادئة بشكل غير مريح على الرغم من أنني ما زلت هنا فقط، لكن عندما أتدحرج وأطفئ الضوء، أدركت لأول مرة منذ وقت طويل، أنني لا أشعر بالوحدة حقًا."

نظرتَ ليَّ باهتمام وأخبرتني: أتعلمين ما أعجبني حقًا؟

سالتك: ماذا أعجبك؟

بنبرة حزينة أخبرتني: هذا الاقتباس "هل من الممكن إن تغلقي عينيكِ؟.. لأنه لا يمكنني الرحيل لو أنك مازالتِ تنظرين إليَّ" وأنا يا يقين لا أستطيع الرحيل، أنا مقيد تمامًا، وكلّيًا، أنتِ قيودي، سجِني، سَجانَّي، حتّى و إن حاولت الرحيل، لا أستطيع، تفصلنا خمس أقدام يا يقين، ولكن ليس بنا مرضًا خطيرًا يمنعنا من الاقتراب.

لم أدر ماذا أفعل؟ دائمًا تضعني في هذا الموقف، لا أعرف ماذا أقول؟ أخبرتك أني تأخرت وسأذهب. وهمّمت بالمغادرة سريعًا.

ولكنك غضبت فجأة وقلتَ: أهربي هذا ما تجدين فعله، قلبك جليدي يا يقين، هل لعنك تنين الجليد أيضًا؟ أم أنكِ تنين الجليد بحد ذاته؟ لقد مللت يا يقين مللت، ماذا أفعل، ليس لديّ سلطَّة على قلبي.

لقد أحزنتني، وجعلتني أبكي، أخبرتك وأنا أذرف الدموع: حسنًا، أنا تنين جليدي، فلتبتعد عني، لكي لا تتجمد ويقتلك تجمد الجليد، لا أستطيع أن أبادلك ما تريد، أنتَ صديقي، لا أريد خسارتك ولكن إن كنتَ تريد الرحيل، فقط أرحل.

تركتك وركضت مسرعة، وأنا أحاول أن أجفف دموعي، يبدو أننا انتهينا يا بدر، بدون أن نقول وداعًا حتى. حسنًا، أنا أعترف أنا لا أعلم النهاية، كان يجب أن أعتذر لك، أو أن أتجاهلك مثلما أفعل دائمًا، لا أدري كيف انفعلتُ هكذا؟ هل سيكون لنا لقاء من جديد؟ لا أعلم، كل ما أريد قوله لا تحاول تغيير أحد، أبحث عن الأرواح التي تشبهك مُنذ البداية. وأنا لا أشبهك صدقني، لست أنا من تريد. أنت تستحق أفضل مني بكثيرٍ.

الفصل الخامس

الزنبق الأبيض

مرّت شهور منذ آخر لقاء لنا، للأمانة بحثت عنك في المقهى، المكتبة، المتحف، حتى أنيّ صحوت مبكرًا، وانتظرتك في موقف الحافلة. أصبتُ بالبرد يومها، وأنت لم تأت قط. ظلّلت مريضة لأيام، كان البرد مجرد سِتَّارٍ، كان المرض بالداخل، كنتُ أتآكل من داخلي. لم أرد أن يكون الوداع هكذا، على الاقل ليس الآن.

يبدو أننا انتهينا، كنت أريد الاعتذار لك، كنت أريد أن أعتذر لتحطيمي فؤادك. صحوت مبكرًا مجددًا، كان الطقس جليديًا، نحن في يناير الشهر المتجمد، شهر الحنين، العزلة، الاكتئاب، الوحدة، هو الشهر الذي يجعلك تكتشف نقاط ضعفك. يجعلك محطمًا، كئيبًا، تبدو كمّا لو كنت تائه، ولا تعلم وجهتك مهما حاولت الوصول. وها هي الثلوج تتساقط الآن. عظيم، سأمرض مجددًا. جلست منتظرة، ماذا أنتظر؟ أنتظرك. رأيت طيف من بعيد يقترب، لم أحرك ساكنةً. بعد لحظات رأيتك غاضبًا وكان معاك غطاء، وقمت بتغطيتي.

ونظرتَ ليَّ بحدة: هل تريدين قتل نفسك يا رأس الفجل؟

ظلّلت صامتة، لا أعرف ماذا أقول، أنت توبخني، ولم أرد أن تسوء الأمور أكثر.

ولكنك تابعتَ بذات النظرة: أريد جوابًا، والآن.

أجبتك بندم وحزن: كنت أريد أن أعتذر منك، كنت أنتظرك، مرت شهور، إلى أن جاء الشتاء، شتاء البرد، وشتاء القلوب.

لم تكن تنظر إليّ، فقط قلت: لقد أخبرتني أن أرحل، وقد رحلت يا يقين، لم أرد أن أصبح ثقيلًا عليكِ أكثر من ذلك.

نظرتُ إليك بتوسل: أ، لِمَ تغفر بعد؟ فلتغفر ليَّ يا بدر.

أجبتني: لا، أستطيع. ..

قمتُ بمقاطعتك بحزن: لا؟ لماذا؟

نظرتَ ليّ بجدية: هل أكمل حديثي؟ أنتِ محاور سيئ، أتركيني أنهي حديثي.

أجبتك: حسنًا، أكمل.

أخبرتني بودٍ: لا، أستطيع إلا أن أسامحك، أتعرفين أمرًا؟

سألتك بفضول: ما هو هذا الأمر؟

أجبتني دون النظر إليّ: أنتِ مثل الزنبقة البيضاء التي أعادت للملك بصره.

سألتك بعدم استيعاب: لماذا الزنبق الأبيض؟ لم أفهم.

نظرتَ نظرةً لم تنظر ليّ بها من قبل، لا أعلم، لم تكن بدر الذي أعرفه، لقد أطفئت روحك، يا ليّ من تنين جليد.

أجبتني: لأنه رمز النّقاء والطَّهارة، وأنتِ طاهرة ونقية.

سألتك باندهاشٍ: ولكن ما قصتها، وكيف أعادت للملك بصره؟

أخبرتني بعطفٍ: حسنًا، سأقص عليك هذه الحكاية، ولكن لا تنتظريني مجددًا ولا تحاولين قتل نفسك مجددًا.

أجبتك بوجومٍ: حسنًا. سأفعل ما تقول.

أخبرتني: بالمناسبة هذه حكاية لاتينية قديمة.

أَوْمأت لك برأسي بالموافقة.

وأنت تابعتَ: كان هناك ملك له ثلاث أبناء، الأكبر بيدرو، الأوسط ماركوس، الأصغر خوان، وابن من امرأة أخرى، خوسيه.

أصابه العمي، ورأى يومًا ما رؤية فيما معناها، إن مرر على عينيه زهرة الزنبق الأبيض، سيسترد بصره. فيذهب الأخوين الأكبر والأوسط ليبحثا عنها، ولا يعودا، فيقرر الأخ الأصغر أن يذهب هو الآخر للبحث عنهم وعن الزهرة.

قاطعتك باندهاشٍ: وهل سيجدهم؟

أجبتني: سيجدهم، ولكن وهم فقراء، فيرد لهم مالهم من الذين سرقوهما. وبعد ذلك ذهبوا جميعًا للبحث عن الزهرة، كلً على حدّى، ولكن الأخوين عادا إلى المدينة التي توقفا عندها. وتابع الأخ الأصغر طريقه، ووجد رجل عجوز، شعره طويل وأشعث، أظافره طويلة، فسألهَ عن الزهرة. أخبره العجوز عن أن الأمر شاق، و إنَّ عليه أن يقص شعره وأظافره فمنذ مئة عام لم يقربهم مقص، وسيقول له أين يجد الزهرة؟ وقام أيضًا خوان بغسل وجهه ويديه. وقال له عن الطريق، وذهب هو وخوسيه، وفعل مثلما قال له العجوز. داخل الشجرة، وجد مائدة وفوقها ثلاث زهرات زنبق، واحدة بيضاء، وردية، بنفسجية، وعلى نفس المائدة وجد قنينة نبيذ لا ينفذ منها أبدًا، وخبزًا لا ينتهي، وفي أحد الاركان وجد سيفًا متحركًا، ميزته عندما تكون في خطر الجأ إليه.

سالتك باندهاشٍ: هل أخذ هذه الاشياء وذهب؟

أخبرتني: لا، بل تابع إلى الداخل حتى بلغ غرفة بها طفلة نائمة وتركها بعد أن كشف عن وجهها، وذهب إلى غرفة أخرى، ورأى فتاة أخرى وتركها، ووصل طريقه مجددًا، إلى الغرفة الأخيرة، ووجد فتاة أجمل من الفتاة الأولى، لقد ذهل لجمالها، ولكنه كان مضطرًا للخروج، حينئذ مال ناحيتها، وطبع قبلة على ثغرها، وتراجع وغادر، لكي يعود إلى أبيه ويسترد بصره.

وصل إلى مدينة صغيرة ولم يكن بها نبيذ. ودخل نزل "فندق"، فطلب صاحبه زجاج النبيذ من خوان، وأعطاها له على أن يردها إليه في أي وقت. وغادر ومر على مدينة أخرى، ولم يكن فيها خبزًا فأعطاهم الخبز على أن يسترده. وغادر كذلك، وبعدة عدة أيام وصل مدينة أخرى، وطلب صاحب النزل أن يعطيه السيف، فأعطاه له على أن يسترده. وشرع في السير إلى أن وصل، إلى المدينة التي ترك فيها أخويه، وسألاه إن كان عثر على الزهرة.

ولكنك صمت فجأة، فقطعت هذا الصمت: وماذا قال؟

تابعت حديثك: أجاب نعم، ولكنه اطلعهم على الزنبق البنفسجي، وقال أنها هي. بعد أن ساروا كثيرًا شعروا بأنهم منهكون ويأكلهم العطش. لم يكن هناك ماء، فذهبوا ليبحثوا عنه، وبقي خوسيه بالقرب من الجياد. وصلوا عند واد عميق جدًا وبه بئر، فنزل الأخوين وشربا، ولكن عندما نزل خوان، قاموا بقطع الحبل وقتله. وأخذا الزهرة البنفسجية باعتقادهم أنها الصحيحة وذهبوا للملك ومررها على عينيه، ولكنه صار أسوأ، وقال ليست هي. في اليوم التالي شعر خوسيه أنّ شيئًا سيئًا حدث، فذهب إلى الوادي، ورأىَ خوان معلق في البئر، ويبدو أنه ميت، فقام بتمرير الزنبق الأبيض عليه ثلاث مرات وأعاده للحياة. وعادا إلى القصر، ولكن طلب من خوسيه أن يعود وحده، ولا يخبر أي

أحد عنه. وبالفعل نفذ ما طلب منه، ولكن الملك قال: ذات يوم سيأتي، قلبي يقول ليّ، إنه من سيجلب الزنبق الأبيض.

سالتك بانبهارٍ: ولكن ماذا حدث للفتيات الثلاثة، ومن أستيقظ منهم أولًا؟

أجبتني: استيقظت الأولى وبعدها أيقظت الأخريات، وصاحت: من الصعلوك الذي جاء إلى هنا وسرقني؟ والطفلة التي قام بتقبيلها، أنجبت ولدًا. طلب خوان من الزنبقة أن تجعله أحمقًا لمدة عشر سنوات، وذهب للملك وطلب منه عملًا، وكان أخويه يكرهانه لقذارته، ولكن طباخين القصر يحبونه لأنه يوفر عليهم العمل. وبعد عشر سنوات أستعاد فطنته.

قاطعتك باندهاشٍ: ولكن ماذا حدث للطفلة؟

أخبرتني بهدوء تام: كبر طفلها، وكان ذكيًا جدًا، وبعد أنّ بلغ العاشرة بدأوا في مضايقته، حيث قالوا له: يا ابن الحرام، لا تعرف أباك ولا أمك. وذهب يشكو إلى أمه، فقالت له: سنخرج للبحث عن أبيك. ورحلا وبعد مسيرة طويلة، وصلا إلى مدينة صغيرة وقدم لهم الرجل نبيذ من الزجاجة التي لا تنفذ، فقالت له أبوك مر من هنا. وطالبت الأم بها، ولكن الرجل رفض أعطاها لها، فقالت للصبي: قل للزجاجة أن تأتي وستأتي إليكَ. وبالفعل ودعت القنينة يدا الرجل وذهبت إلى ذراعيّ الطفل. وذهبا إلى المدينة الأخرى، ووجدا الخبز، ورفض

الرجل تسليمه لهم، والطفل فعل مثلما، فعل مع الزجاجة، وأتي الخبز إليه. ورحلا أنّ وصلا إلى نزل ورأت السيف، ورفض الرجل تسليمه لها، وقام الطفل بمناداته وأخذه كما فعل للخبز والزجاجة. ثم أكملا مسيرتهما، وحين لِمَ يتبقى إلا القليل، قالت الفتاة للسيف: البس ابنيّ ملابس أمير، بأثري الملابس وأجملها، واجعل خمسمائة جندي جاهزًا، ينضمون إليه ويخضعوا لأوامره. وتقدم الطفل، وارتدت أمه ملابس ملكة، وتقدم جيشهم. وحين سمع خوان بهم، خرج من المدينة من الجانب المواجه لقدوم ابنه، وأخرج من جيبه الزنبق الأبيض، وطلب منه أن يفعل مثلما فعلت الفتاة لابنها. وحراس الملك أخبروه، أن جيشين من طريقين مختلفين، يأتيان لغزو المدينة. فقال الأب وابنه نحن رجال سلام. ووصَل الجيشان في التقدم إلى القصر. وتقدم خوان إلى الملك وقال له: بعد سنوات طويلة من الغياب سأقدم لك الزنبق الأبيض. و مرر الملك الزهرة على عينيه وأسترد بصره في نفس اللحظة.

سألتك بتعجبٍ: وماذا حدث لأخويه؟

أجبتَ: ركعا بين قدميّ أخيهما وطلبا منه العفو عن جرمهما وهو عفا عنهم.

بفضول جمَّ: وماذا حدث للفتاة وابنه؟

حدثتني بهدوء تام: تزوجها بالطبع يا يقين، وأرتدى خوان وزوجته، تاجيّ أبويه على رأسيهما، وأُعلنوا ملوكًا، وسط سعادة الجميع الجمّة.

أخبرتك: قصة جميلة بالفعل.

أضفتَ: في النهاية هي حكاية والحكايات خرافات مصغرة، لا أحد يغفر بسهولة، المغفرة تأخذ وقتًا، نحن بشر ولسنا ملائكة، هل أخبرك أمرًا؟

أجبتك بفضول: أخبرني؟

أجبت ممازحًا: أنتِ أكبر زنبقة تزنبقتها في حياتي.

لقد أضحكتني حقًا، لا أستطيع تجاوز هذا الموقف.

عاد وجهك للوجوم مرة أخرى وقد همّمت بالرحيل: سنلتقي مجددًا، لا تبحثي عني، سأتي إليك، ورجاء لا تحاولي قتل نفسك، مثلما كنتِ تفعلين قبل أشهر.

ذهلت كلّيًا: كيف علمت؟ كنت أريد أن أعتذر لك فقط، كان شعوري بالذنب يؤلمني، لم أرد أن أجرحك.

أخبرتني بجدية: كان يجب أن أعتذر أنا، أنتِ لم تخطئي في شيء، فقط لا تهتمي، واعتني بنفسك، ولا تنتظريني، لا تنتظري. اللقاء إن كان مقدرًا سيحدث.

ومن ثم غادرت وتركتني، وأنا أيضًا عدت إلى المنزل. جميل أن يكون الودّ غالبًا، أن ننسي خلافتنا بسهولة، وأن نسامح ونغفر لبقاء الودّ. لا أعلم إن كنت سأقابلك مجددًا، أم لا؟

ولكن أعلم أن هناك طريقة دائمًا. لن أنتظر، الانتظار مزعج.

الفصل السادس

عيون الحيا

مر الشتاء، وجاء الربيع وأنتَ لم تأت، لا أنتظرك صدقًا. أنتَ تعلم كم أكره الانتظار، الانتظار مزعج. إن تنتظر شيء هو الأسوأ على الاطلاق، ما الذي يعنيه؟ عندما أنتظر شيئًا ولا يحدث، سيتحطم فؤادي. ناهّيك عني، لا يحدث شيء أنتظره أبدًا، وكإنّ الانتظار لعنة، وأن انتظرت شيء لو بسيط، لسبب ما لا يحدث. الربيع يعني أن الورود تتفتح والأزهار تغني، والقلوب أيضًا تتفتح براعمها بعد شتاءً طويلًا وقاسيًا. زهورًا كانت تحارب البرد والصقيع، لتحاول النجأة والبداية من جديد في الربيع. ونحن أيضًا نحارب الصقيع، ولكن صقيع قلوبنا، ونحاول النجأة من الشتاء داخلنا، ونبدأ ربيعنا. هناك دومًا بداية جديدة. فمهما حدث سنبدأ من جديد. يمكننا دائمًا أن نبدأ مرة أخرى.

كنت أمشي على الجسر ووجدتك تنظر إلى المياه، لقد خفت حقًا، ظننتك ستلقى حتفك.

ركضت نحوك وأنا أصرخ كالمجانين: بدر، توقف، لا، لا، لا تفعل ما أفكر به؟

نظرتَ إليَّ متعجبًا: توقفي عن الصراخ يا مجنونة، ماذا تظنين أنيّ أفعل؟

سألتك بخوف: هل كنت تنوي أن تموت؟ ما هذا الغباء؟ هل لديك عقل حتّى؟

أجبتَ ضاحكًا: لا لم أكن لأفعل، صدقيني. فلتنظري إلى ماذا أنظر أولًا.

نظرتَ إلى ما تنظر إليه، لقد كان في غاية الروعة حقًا، مجموعة طيور ألوانها زاهية، تستعرض في عرض البحر، كأنها من عالم آخر، تحلق في انسيابية و إتقان، منها من يحلق على شكل دائرة وآخر على شكل قلب، وهناك من يدور حول نفسه.

أخبرتني ضاحكًا: تأكدي من معلوماتك أولًا، أ يعجبك الجميع ينظر إلينا الآن؟ سيعتقدون أننا مجانين.

أجبتك بابتسامةٍ: نحن بالفعل مجانين، لا أحد ينظر إلى هذه الطيور غيرنا.

توقفتَ عن الضحك فجأة، لا أدري ما أصابك، فقط ظلّلت صامتًا. وفجأة أنشدتني شعرًا:

" عُيونُ المَها بَينَ الرُصافَةِ وَالجِسرِ

جَلَبنَ الهَوى مِن حَيثُ أَدري وَلا أَدري

أَعَدنَ لِيَ الشَوقَ القَديمَ وَلَم أَكُن

سَلَوتُ وَلكِن زِدنَ جَمراً عَلى جَمرِ"

ذهلتُ تمامًا، ماذا أقول؟ فقط فضلت الصمت. صمتي أفضل من حديثي بالطبع.

قاطعت هذا الصمت وأخبرتني: أتعرفين أن عيناكِ تشبهان عيون المها.

سألتك بفضول: لماذا عيون المها بالتحديد؟

أجبتني: لأن عينيكِ جميلة حد الفتنة يا يقين. أتعرفين أبيات الشعر التي قولتُها لمنّ؟

أخبرتك بذكاء: بالطبع أعلم، إنه الشاعر العباسي عليٌ بن الجهم.

سألتني بهدوءٍ: هل تريدين معرفة القصة وراء هذه الأبيات؟

أجبتك: أعرفها، ولكن سأحب إن قصصتها عليَّ.

حدثتني: كان الشاعر المعروف علي بن الجهم يعيش في الصحراء. فدخل على الخليفة المتوكل يريد مدحه، فقال :

"أنت كالكلب في حفاظك للودَ

وكالتيس في قراع الخطوب

أنت كالدلو لا عدمناك دلوا

من كبار الدِلا كثير الذنوب"

فقام الحاضرون يريدون ضربه، فمنعهم المتوكل، وقال: خذوه إلى حديقة الجسر. . وهناك عاش سنة كاملة بين الغزلان والبلابل، والجنائن والأنهار.

فلمّا انقضت السنة بعث المتوكل في طلبه. فلما دخل عليه، قال: انشدني شعرًا، فقال:

"عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

اعدن لي الشوق القديم ولم اكن

سلوت ولكن زدن جمرا على جمر "

فأعجب المتوكل من شعره. وقال للحاضرين: لا تعجبوا من حاله بالأمس واليوم، فالشاعر يستقي خياله من البيئة التي يعيش فيها.

أضفت مبتسمًا: بالمناسبة، المها نوع من الغزلان، جميل الطلّة، مثلك تمامًا يا غزالتي.

أخبرتك بجديةٍ، وحاولت الهروب منك: ما أعجبني حقًا، هو قول المتوكل عندما قال: الشاعر يستقي خياله من البيئة التي يعيش فيها.

ونحن أيضًا تصنعنا البيئة التي نعيش فيها، نأخذ طباعنا وعاداتنا وتقاليدنا منها، نحن نسيج البيئة التي نعيش بها. ولكل قاعدة شواذ بالتأكيد. هناك من يخرج من رحم بيئة لا تنتمي له، ويحارب لكي لا تؤثر عليه.

أخبرتني بجدية: أ ما زلتِ تهربين مجددًا؟ حتى بعد كل هذا الفراق بيننا.

ثم أضفتَ: حسنًا. أهربي لا بأس أعتدت هروبك.

لم تنتظر حتّى ردًا مني، فقط ذهبت. وأنا لم أستطع حتى إنّ أوقفك، كنت خائفة أن تغضب أو أن نتشاجر مرة أخرى. أُفضل الهروب منك على مواجهتك. أخاف أن أخسرك حقًا. هل سنلتقي مجددًا؟ دائمًا ما أسأل هذا السؤال. فالواقع لا أعلم إجابته، سأترك القدر يقرر. هذا ما أفعله دائمًا، أن أنتظر وأنا أكره الانتظار.

الفصل السابع

طائر الهامّة

مرت عدة أيام منذ أن تقابلنا. استيقظت صباحًا، تناولت قهوتي، وارتديت ملابس العمل وذهبت أنتظر الحافلة. أمقت الانتظار، ولكنه العمل في النهاية. انتظرت قليلًا، لكنكَ لم تأت وأتت الحافلة، صعدت بها. وظلّلت أبحث عن مقعد، ويا له من سوء حظ لا يوجد أي مقعد فارغ. يبدو أن اليوم ليس يومي، لقد تشاءمت الآن. أ يمكن أن يسوء يومي أكثر؟ ليتني لم أسال، كعب حذائي المفضل انكسر، رائع آمل ألا يسوء أكثر، لا لن أقول هذه الكلمة أبدًا. يكفي ما حدث ليّ إلى الآن. خلعت حذائي وأمسكته بيدي، وحاولت ألا أبكي، وصدقًا لو سألني شخص ما، كيف حالك؟ لبكيت. قام شاب من مكانهِ، وجعلني أجلس مكانه، كان يغطي وجهه لم أعرفه. ولكن عندما تكلم عرفت إنهُ أنت.

سألتك بتعجبٍ: ولكن كيف، هذه ليست حافلتك ؟

أجبتني: لقد اكتسبتُ عادتك السيئة، في عدم الاستيقاظ مبكرًا. وها أنا لقد تأخرت.

نظرت إليك بعتابٍ: بسببك أنت كسر حذائي المفضل. وانفجرت في البكاء. جميع من في الحافلة، ظنوا أنك ضايقتني. ولكنك حاولت الشرح لهم، ولا أحد يستمع إليك. كان يجب أن أتركك تضرب يومها، ولكني بنبل الأميرات، توقفت عن البكاء وأخبرتهم أني أبكي بسبب انكسار حذائي. ضحكوا كثيرًا عليّ ومنهم من وصفني بالفتاة الحمقاء، السخيفة، التافهة. ولكن لا يهم، قد نبكي لأسباب تافهة، ونترك الأسباب الحقيقة تأكل روحنا، دون أن ندري. نبكي لأننا أمام الأشياء الكبيرة صمدنا. وهزمتنا توافه الأشياء. شكرتني كثيرًا، بالطبع لقد أنقذتك، هذا قليل عليّ.

أخبرتني: هل تعرفين أمرًا؟

أجبتك: ماذا؟

أخبرتني: أنتِ تشبهين طائر الهامّة كثيرًا، ولكن هناك فرق وحيد بينكما...

قاطعتك غاضبة: ماذا تقصد بهذا الكلام؟ هل أنا بومة يا بدر؟

أخبرتني ضاحكًا: لم أقصد هذا. طائر الهامة خرافة العرب، حكاية قديمة.

نظرت إليكَ بحدةٍ: وما حكايته؟ لا تكذب عليّ.

أخبرتني بهدوءٍ تامٍ، وهذا الهدوء يزعجني أحيانًا :

-خرافة الهامة والصدى؛ وتتعلق بقضية مقدسة، الأخذ بالثأر عند عرب الجاهلية الأولى، بل حتى عصر الجاهلية الثانية في بعض الأقطار العربية. فالعرب الجاهليون كانوا يؤمنون بأن هناك طائرًا خرافيًا يخرج من هامة القتيل ويظل يحوم حول قبره صائحًا: اسقوني، اسقوني. يريد سُقيا الدم بالثأر فهو متعطش لدم القاتل. فإذا قُتِل القاتل ارتاحت روح القتيل. يقول المؤرخ المسعودي: يزعم العرب أن النفس طائر ينبسط في الجسم، فإذا قُتِل الإنسان لم يزل يُطيف به مستوحشًا يصدح في قبره. ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرًا ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم. وهو أبدًا مستوحش ويسكن في الديار المعطَّلة ومصارع القتلى والقبور.

وأنها لم تزل عند ولد الميت لتعلم ما يكون بعده فتخبره به.

قال شاعر جاهلي في رثاء كفار قريش بعد يوم بدر:

يُخَبِّرنا الرسول بأنْ سنحيا

وكيف حياةُ أصداءٍ وبوم؟

وقيل: أصداء جمع صدى وهو طائر يخرج من رأس القتيل. ويتردد ليلًا نهارًا طالبًا الثأر... إلخ.

وقال ذو الإصبع العدواني في ابن عمه:

يا عمروُ إن لم تدعْ شتمي ومنقصتي

أضربْك حتى تقول الهامة: اسقوني.

غضبت كثيرًا وقولت: هل تقصد إنني بومة؟ لقد زدت الطين بلّة، صدقني.

أخبرتني ممازحًا: ولكنك بومة لطيفة.

نظرت إليكَ بحدة: حقًا، هل أقول لك منّ البومة؟

حاولت ألا تظهّر ابتسامتكَ، وأخبرتني: منّ أخبريني؟

أخبرتك بانفعال: أنت هو البومة.

لم تستطع أن تتمالك نفسك من الضحك، وأنا فقط كنت غاضبة وحسب.

أخبرتني ألا أحزن فالبوم طائر جميل حقًا، ولكن ارتباطه بالخرافات ليس جيدًا.

ثم أضفت: ولكني كنت أحدثكِ عن ارتباطها بالثأر وأيضًا في الأدب الإنكليزي المشهد الخامس من مسرحية هملت لشكسبير، يظهر شبح أبيه المقتول قاصًّا عليه سر مقتله بالتواطؤ بين أمه وعمه، وطالبًا الثأر منهما حتى تنطفئ ناره:

أنا روح أبيك، وقد حُكِم عليّ بأن أطوف

في الليل زمنًا وفي النهار، بأن أتضوّر جوعًا في اللهب ،سردتُ على مسامعك قصةً، أخفُّ لفظة فيها تعذّب نفسك، وتجمّد دمَك الفتي. وداعًا يا هملت. لا تنسني!

عبر القرون الداميات من عمر الإنسان، قُتل الملايين من البشر، وذهبت دماؤهم هدرًا وسدى. وهل ثأروا لهم؟ بالطبع لا.

أخبرتك: وما علاقتي بالأمر أنا لا أفهم؟ حقًا لا أفهمك، هل أنت بخير؟

ابتسمتَ ليّ، وقمت بحك شعرك، وأخبرتني: في الواقع أردت أن أخلق معاك حديثًا، وأحاول إن أنسيك ما قولته لك.

ضحكتُ: هكذا إذًا، أردت أن اتوه وأتغاضى عن الأمر، لا لم تحذر بعد، لقد جنيت على نفسك.

أخبرتني بحنوٍ: فلتغفري يا يقين، لا يليق بك الغضب يا بومتيِ.

ابتسمتُ وقولت متعجلة: ألا زالت مصرًا؟ حسنًا كما تريد، محطتي اقتربت، إلى اللقاء.

عندما هممت بالمغادرة همست ليّ: إلى اللقاء، زهرتيِ.

تركتك وتابعت في طريقي. يا رجل بربك، لو استمريت على هذا الحال، ربما سأقع في غرامك. وصدقني أنا لا أستطيع أن أفعل، إن قلبي ملك لرجلٍ أخر

لا أستطيع خيانته. ولكني أستطيع تجاهلك وأبقانا أصدقاء، لا أعلم إلى متى؟

رجل بالرغم من رحيله عن عالمنا، إلا إنه دائمًا موجود في البقعة المسماة قلب. كان يغازلني مثلما تفعل، هناك ذكريات كثيرة أسترجعها، عندما أقابلك. وكأنك تجدد حبي له. لا أريد أذيتك، أشعر إنني لعنة، كل من يقترب مني يموت. وأنا أريدك أن تحيا، لن أتحمل خسارتك.

الفصل الثامن

الدُمية

خرجت في يوم ربيعي، ملبد قليلًا بالغيوم. في الواقع ربيعنا دومًا ملبد بالغيوم، لا يوجد طقس معتدل، دائمًا تنبأ أنّ هناك تغييرًا في الخطة. يمكن أن تمطر فجأة. أو تثلج. أن تحدث عاصفة مثلًا. بالمناسبة، أحب القراءة. أحب المّطر. والقهوة. والثلج. والفراشات. والزهور. أحب تناقضي وبشريتي. كان الطقس جيدًا إلى حد ما، مائل للصقيع. فالربيع يخرج من رحم الشتاء، ويأخذ وقتًا ليعتاد الدفء، حتى نحن نأخذ وقتًا لنعتاد الحياة.

ذهبتُ إلى المتنزه، أردت إن أخرج قليلًا من عزلتي، أرى الأطفال يلعبون، أستنشق هواءً نقيًا، أتجول بين الأشجار، أرى الطيور في البحيرة الصغيرة تسبح، العصافير ترقص فرحًا بالدفء. كنت أتمنى أن أشعر بالدفء، ولكن قلبي محطم. ولكن لا بأس، كل هذا سيمضي وسأضحك عليه بعد مرور مدة من الزمن. كما تعلمون الوقت كفيل أنّ يشفي كل الندوب. اليوم كان حزينًا نوعًا ما، حتّى أنت لم تأت. ولكن قد تمت ترضيتي، قابلت فتاة صغيرة تجلس

وحيدة. لقد أنشطر قلبي عليها، كيف لهذا الجمال أن يظلّ وحيدًا وحزينًا.

ذهبت إليها وجلست معها دون أن أتحدث، فقط جلست صامتة.

تحدثت إليّ ببراءة: أمي تقول ليّ، ألاَ أتحدث مع الغرباء.

أجبتُ بهدوء: حسنًا، لن نتحدث، الصمت مفيد.

أخبرتني بنبرةٍ طفوليةٍ: ولكنكِ تبدين لطيفة، لهذا سأتحدث معك.

لقد ذُوبَت قلبي حقًا، فأنا أحب الأطفال.

بادلتها الحديث: وأنتِ تبدين لطيفة أيضًا. لماذا تجلسين وحدك؟ ولا تلعبين مع الأطفال؟

أجبتني ببراءة: أمي تقول أني لا أستطيع اللعب لكي لا أمرض، أمي دائمًا خائفة أن يصابني مكروه.

سألت بحنوٍ: يبدو أنّ أمكِ تحبك كثيرًا.

أجبتني بذات النبرة الطفولية: تحبني كثيرًا، انظري إلى دُميتي.

وأرتني دُميتها الصغيرة. ثم أضافتَ: أشترتها ليّ أمي في عيد ميلادي السابق. هل أعجبتكِ؟

أجبتُ مبتسمة :بالطبع أعجبتني، أنها جميلة جدًا، مثلك تمامًا.

أخبرتني: أتعلمين شيئًا؟

وظلّت صامتة، عندها عملت أنها تريدني أن أجيبها على سؤالها.

أجبتُ بهدوءٍ: لا أعلم، صدقيني.

انفعلتَ ببراءةٍ: سيدتي، اسألك، لتسألينني، ما هو هذا الشيء؟

سألتها ضاحكة: وما هو هذا الشيء الذي لا أعلمه؟

قالت ليّ: كانت ليّ دُمية صغيرة، كنت أحبها جدًا، ولكني أضعتها يومًا ما، وحزنت جدًا، وظلّلت أبحث عنها ولم أجدها.

وتوقفت عن الحديث، هذا معناه إني يجب أن أسالها.

سألت باندهاشٍ: وماذا حدث بعد ذلك؟

أجبتني ببراءةٍ: أرسلتَ ليّ الدُمية رسائل، لكي أطمن عليها، وأنها في مغامرة وستأتي من جديد، لقد انتظرتها. وفي يوم من الأيام، وجدت أمام باب منزلنا، هذه الدُمية، ورسالة صغيرة قرأتها ليّ أمي، أن هذه هي دُميتي، وأن المغامرة غيرتها. أ ليست قصة جميلة؟

أجبت باهتمامٍ: بالطبع.

أخبرتني أن أمها ذهبت لتحضر المثلجات، وستأتي قريبًا، ظلّت جالسة بقربي وتحكي ليَّ قصصًا طريفة. إلى أنّ جاءت أمها ووبختها، لأنها جلست مع

شخص غريب، حاولت الاعتذار أو الدفَّاع عن الطفلة، ولكن الأم أخذت الطفلة وذهبت.

يبدو أن الأم قارئة جيدة لقد ذكرتني قصة الفتاة ودُميتها، بالذي حدث مع كافكا، والطفلة الصغيرة التي قابلها والقصة باختصار:

فرانز كافكا قبل وفاته بسنة عاش تجربة عظيمة جدًا كتب عنها..

في حديقة في برلين لفتت انتباهه طفلة تبكي بُحرقة، بسبب أنها فقدت دُميتها، عرض عليها أن يساعدها في البحث لكنه لم يجد شيئًا فاقترح عليها أن ترجع لبيتها وأن يقابلها في اليوم التالي ليبحثوا مجددًا..

لكن في البيت، قرّر كافكا أنه يكتب رسالة على لسان الدّمية للطفلة؛ ويسلّمها لها في الموعد لأنّه كان واثقا أنّ الدّمية ضاعت للأبد..

الرّسالة كانت:

"صديقتي الغالية توقّفي عن البكاء أرجوكِ، إنّي قرّرت السّفر لرؤية العالم وتعلُّم أشياء جديدة، سأُخبرك بالتّفصيل عن كلّ ما يحدث ليّ يوميًا"..

عندما تقابلوا قرأ الرّسالة للطفلة التي لم تتوقف عن الابتسامة والفرحة وسط دموعها..

وهذه لم تكن الرسالة الوحيدة، كانت البداية لسلسلة لقاءات ورسائل بينهم، تحكي فيها الدّمية للفتاة عن مغامراتها وبطولاتها بأسلوب ممتع جميل جذّاب..

بعد انتهاء المغامرات أهدى كافكا للبنت دمية جديدة كانت مختلفة تمامًا عن القديمة..

ومعها آخر رسالة على لسان الدُمية :

" الأسفار غيّرتني، لكن هذه أنا"..

كَبرت الفتاة وبقيت محتفظة بدمية كافكا إلى أنّ جاء يوم واكتشفت رسالة أخيرة ثانية كانت مخبّأة في معصم دميتها وجاء فيها :

"الأشياء التي نُحبّ معرّضة للفقدان دومًا لكن الحبّ سيعود دومًا بشكل مختلف."!

هل يعود الحب حقًا؟ حبي لم يعد بعد.

ولكن سأنتظر فأنا لا أملك إلا الانتظار.

الفصل التاسع

شعرة من الأسد

غادرنا الربيع وحل الصيف وأوشك على الانتهاء، وأنتِ لِمَ تأت بعد. أكره الصيف، أشعر إنني أذوب. الحرارة، العرق، الشمس، الازدحام، الرطوبة. أكره كل هذا، يوترني. أكره العمل في الصيف، وساعات العمل الطويلة، وأكره التوقيت الصيفي أيضًا.

انتظرتك كثيرًا، أخبرتني أن لا أنتظر، ولكن لم أستطع. لم أكن أعلم أنها وداعًا. ظننتها إلى اللقاء. لم أكن أعلم أنكَ ذهبت بلا عودة. لم نتفق على هذا، لقد خدعتني، أيها المخادع. غاضبة جدًا عليك، ولهذا قررت أن أذهب لملجئي الآمن. العمة وجدان، ليست عمتي، ولكني أناديها هكذا احترامًا. أنها من النوع القديم وتحب كل القديم، وتمقت جيلنا وعاداته، ومع ذلك تحب أن ترى الجميع سعداء. قلبها برَقَّةٍ العصافير، رائحتها رائحة الأمهات والجدات، أن الأمهات لهم رائحة مميزة، رائحة الدفء والأمان. العمة وجدان، بالمناسبة لديها بقالة. أجل بقالة في هذا البلد الأجنبي. بالمناسبة هي تحب أي عربي يمر عليها، ولكن يومًا ما حدث شيئًا، سأحكي عنه لاحقًا، عندما أتذكره. كان

على أن أذهب إليها، أريد أن أشتري بعض الطعام، لماذا أذهب إليها؟ وهناك الكثير من مراكز التسوق والمحلات؟ لأني أشعر بأمان، أشعر إنني في الوطن. جميل أن نجد الأمان، أو على الأقل نشعر به.

عزيزي الذي تقرأ، مرحبًا. هل وجدت أمانك؟

قابلت العمة وجدان، وسألتني عن حالي، لم أعرف بماذا أجيب؟

نحن نجيب إننا بخير، مع إننا نكذب، لا أعرف، أسوأ ما في الأمر إني مشتتة، لست حزينة ولكني تائهة. كمن ضلّ طريقه في الصحاري، ويريد النجأة، ولا يعرف كيف؟ ولا حتى معه دليل.

أخبرتني العمة وجدان، أن قريبة لها طلبت الطلاق من زوجها، وجعلت تشتم فينا وفي جيلنا وتقول: لم نكن هكذا، لم نعرف معني الطلاق، كنا نحافظ على بيوتنا، ونحتوي رجالنا، أما أنتم جيل اليوم، الطلاق بالنسبة لكم، ما هو إلا ورقة يتم توقيعها. أما بالنسبة لنا، كان حياة ستنتهى، وأطفال يشردون. جيل اليوم لا يفكر في أطفاله، لا يفكر إلا في نفسه.

أقف حائرة فقط أحاول عدم الابتسام و إلا ستغضب مني.

أخبرها: يا عمتي، وما ذنبي أنا؟

تجيب في تهكمّ: لأنك من هذا الجيل. وتخفف من حدة الانفعال، وتخبرني: لماذا لم تتزوجي بعد؟ البنات في عمرك، أولادهم في التعليم الأساسي.

أجيبها بابتسامة: لأني من جيل غير مسئول.

ولكن بعدها تذكرت واختفت ابتسامتي، وحل وجهًا بائسًا: أنتِ تعلمين يا عمة، إني لا أستطيع.

تربت على كتفي وتقول بحنوٍ: يا صغيرتي، الحياة تستمر، لن تدفني نفسك لأجله، وأنتِ صغيرة والحياة أمامك. انظري حولك، هل توقف العالم؟ لا لم يحدث ولن يتوقف لا لحياة أو لموت أحدهم.

أخبرك بحزن: ولكن يا عمتي. ..

تقاطعيني وتحاولين تغيير هذا الموضوع، أنا أعرفك يا وجدان، ولكن لا بأس، أنتِ تحاولين التخفيف عني.

فتخبريني: سأقص عليكِ، حكاية من حكايات جدتي.

أخبرك بفضول: يبدو، أنها حكاية قديمة، كيف تتذكرينها؟

فتخبريني بعتابٍ: هذا مشكلة جيلكم، جيل فاسد لا يصلح لشيء.

فأنفجر في الضحك، تعرفين كيف تخرجيني من عالمي.

أخبرك بتأكيد معلومتك: بالطبع، كما تقولين. ماذا تقول الحكاية الفضول يقتلني؟

تجبين، وأنت تستعدين لتأخذي طبع ألف ليلة وليلة :

عانت امرأة من معاملة زوجها القاسية وعدم حبه لها مما جعلها تسأل عن حكيم القرية، لعلها تجد عنده من الحل حتى يجعل زوجها يحبها ولا يرى غيرها من نساء العالم. ولما دلها الناس على بيته ذهبت إليه وقالت: أشكو إليك قلة حب زوجي ليّ وأطلب منك إن تصنع ليّ حجابًا أو تصنع ليّ سحرًا حتى يحبني ولا يرى غيري.

سكت الرجل قليلًا: ثم قال لها ولكن ما تطلبين يا سيدتي هو شيء ليس بالسهل ولا بالهين. فهل تستطيعين تحمل تكاليف ذلك؟

فأجابت المرأة بدون تردد: أستطيع أن أدفع لك كل ما تطلب.

قال لها: أولًا لابد وأن تحضري ليّ شعرة من رقبة الأسد وأن تحضريها بنفسك ولا توكلين عنك أحدًا بذلك.

سكتت المرأة قليلًا، وقالت: هذا محال يا سيدي، جئتك لتخلصني وليس لتقتلني، فالأسد حيوان مفترس قد يقتلني في أي لحظة وأنا لا أمن نفسي أمامه.

فقال لها: لن أستطيع حل مشكلتك إلا من خلال هذه الشعرة لأن مفعولها أكيد وفي خلال أيام قليلة يصبح زوجك لا يرى في الدنيا غيرك، كل ما عليك هو أن تشبعي الأسد فهو لا يأكل إلا إذا جاع وحينها تأمنين شره.

سألتك باندهاشٍ: وماذا حدث، ماذا فعلت؟

أجبت بهدوءٍ: لو جيلكم يصبر فقط. سأتابع، جلست المرأة تفكر كيف لها أن تقترب من الأسد وتقتلع شعرة من رقبته دون أن يغضب منها، ثم ذهبت واشترت كمية من اللحم ووقفت بالقرب من أحد أشجار الغابة تنتظر مجيء الأسد وعندما حضر الأسد بدأت ترمي له اللحم ثم تبتعد. وفي اليوم التالي صنعت نفس الفعل وفي كل مرة كانت تقترب من الأسد أكثر حتى ألفها الأسد. واعتاد رؤيتها وفي أحد الأيام رمت المرأة اللحم فجاء الأسد وتمدد بجانبها. فانتهزت المرأة الفرصة ومدت يديها تداعبه في رقبته بكل حنية، وفي لحظة كانت قد حصلت على الشعرة التي كانت تريدها.

عادت المرأة مسرعة إلى الحكيم يكاد قلبها ينخلع من السعادة فقد جاءت اللحظة التي طالما انتظرتها طوال هذه المدة.

وما أنّ دخلت عليه حتّى قالت والبسمة تملأ وجهها: سيدي قد حصلت على ما تريد ها هي شعرة الأسد التي طلبتها.

ضحك الحكيم وقال لها: كيف حصلت على تلك الشعرة؟

حكت له المرأة ما كنت تفعله كل يوم مع الأسد حتى استطاعت الحصول على الشعرة.

قال لها: الآن أستطيع أن أقول لك ماذا تفعلين مع زوجك، فزوجك لن يكون أبدًا أكثر شراسة من ذلك الأسد الذي امتلكت عقله حينما علمتِ منّ نقطة ضعفه وهي الطعام.

وهذا ما سوف تفعلينه مع زوجك، اتقي الله فيه واخلصي له من الحب والود ما يتملك من قلبه وعقله. وادرسيه كما درست الأسد تعرفين منه ما يحب وما يكره واخلصي فيه النية لله تجديه بين يديك قد سلبتي عقله وقلبه ولا يرى غيرك من نساء العالم.

أخبرتني: أن الحكمة من هذه الحكاية، أن لو المرأة بذلت نصف المجهود فقط، الذي بذلته في ترويض الأسد، ما احتاجت لأحد ليتدخل بينها وبين زوجها.

مشكلة جيلكم، عند أول مشكلة تهربون، عند أول خطأ، تكشفون عن أنيابكم. وتنهشون لحم بعضكم حيًا. في زماننا، كنا نصبر ونحتمل، كان كل شيء يهون لإبقاء الود، والحفاظ على البيت.

أعطيتني بقالتي وقلتِ ليَّ: الشاب الذي يراقبك، اختفى صحيح؟

تجمدت في مكاني، أنا حتى لم أحكي لها عنك، كيف عرفت بأمرك، يا إلهي، أنا في ورطة الآن. فضلت الصمت، الصمت جيد صدقوني.

ربتت على كتفي وقالت: يبدو شابًا لطيفًا، لا تفرطي به.

اخبرتك بتسرع: لو وجدته، سأفعل.

يا ليَّ من غبية كشفت نفسي. وغادرت وتركتها، إلى معاناتي.

المعاناة هنا، هي ترتيب البقالة، غسل الخضروات ووضعها في الثلاجة. غسل الفاكهة، أنا أكذب لم أحضر فاكهة من الأساس، العمة وجدان أعطتني تفاحة وبرتقالة. هل نعتبرهم فاكهة؟ تفريغ المكرونة في علبها الخاصة. طحن التوابل. صنع المربي، أحب طعمها وأكره صنعها. أمقت كل المهام المنزلية.

وهذا لأني ببساطة كسولة. هل كان الوداع حقًا؟ أم أنه مجرد إلى اللقاء، وستعود مجددًا؟

الفصل العاشر

حارسة الإوز

الصيف أوشك على الانتهاء، سأستعيد روحي قريبًا.

تلك الأيام التي يشعر بها المرء بثقل روحه، ثقيلة للغاية.

أشعر بهذا، لأني أنا أيضًا في تلك الأيام. التحدث بصعوبة، فقدان شهيتك للطعام. النوم بصورة متقطعة. أن تنام ساعتان، وتصحو أربع. الروتين الممل. الدقائق تمر كأنها سنوات. أشعر أن روحي تتمزق. وبالمناسبة ربما لا أستطيع التعبير جيدًا. ولكن الألم والثقّل الذي أشعر به، حتى الكلمات لا تستطيع وصفه. عندما أشعر بهذه الحالة، أحاول الهروب من نفسي. وها أنا أركض، أركض حتّى تتشقق رئتاي. ولكن الألم ما زال موجودًا، حتّى بعد ما أجهدت نفسي، وقطعت أنفاسي. ربما سيفيد بعض الهواء الطلّق، أو التنزه قليلًا. اليوم عطلة، بالمناسبة أكره العطل، أنها تكشف كم أنا وحيدة، كم أنا حزينة وبائسة. العطل دوامة سوداء تلتف حولي لتلتهمني إلتهامًا. لا أحب العمل، ولكنه الشيء الوحيد الذي يجعلني أنشغل. في العمل هناك أمور توترني، وتنغص حياتي. ولكنها ليست أسوأ، من الثقب الأسود المسمى

عطلة. ما هذا اليوم السيئ؟ آمل أن ينقضي سريعًا. حتى وأنا وحدي، لكني لست وحدي. سأتنزه قليلًا، لا يوجد شيء آخر، انتهت حلول الأرض. بعد معاناة مع ذاتي. ذهبتُ للتنزه قليلًا، ربما رؤية الأطفال يلعبون، ربما ستجعلني أفضل. جلست وحدي، أطعم الطيور فتات الخبز، وأنظر إليها وهي تأكل، قد يبدو منظرًا تافهًا للبعض أو مملًا، ولكنه يبعث في روحي السلام. وبينما أجلس، إذا جاءت فتاة صغيرة، بضفائر وشعر خصلاته كأنها ماء الذهب. وفستان زهري مزركش. عيناها كأنها المحيط، لون زرقتها سبحان المبدع. في البداية لم أتذكرها. ذاكرتي ضعيفة نوعًا.

ولكنها أخبرتني بتهذيب: سيدتي، أنا الفتاة التي كانت تجلس وحيدة، يومها. تذكرتها، لم أتخيل أنها تتذكرني حتّى.

أجبتها بابتسامة هادئة: أتذكرك، كيف حالك؟

صنعت لها مكان بجانبي. وسألتني ببراءة: لماذا تجلسين وحدك؟

أجبت: لأن لا أحد فكر، أن يأتي ويجلس بجواري.

نظرت ليّ تلك النظرة التي تستعطف وتذيب قلبك وسألت: ظننتك بانتظاري؟ يا إلهي ماذا أفعل؟ ساعدني يا الله، لا أريد كسر قلبها الصغير، ألهمّني الإجابة الصحيحة.

أجبت بهدوء: كنت بانتظارك، ولكن ظننتكِ لن تأتي.

كان عليكم رؤية وجهها يتهلّل، وهو يشع فرحًا، كأن أحدًا أعطاها روحًا فوق روحها.

سألتني بفرحةٍ غامرّةٍ: هل حقًا ما تقولين؟

أجبت: حقًا، ما أقول.

وبينما أنتظر حديثها، أذا قالت ليّ: انظري ما الذي يحلق في السماء؟

نظرت بدهشة، كان سربًا من طيور الإوز.

سألتني: أتعرفين أن أمي حكت ليّ حكاية عن أميرة الإوز؟

أنا أعرف بالطبع هذه الحكاية، ولكني لن أخبرها بذلك، أريدها أن تكون الأكثر علمًا.

أجبتُ بابتسامة: لا أعلم، فلتخبريني أنتِ بها.

ارتسمتَ على وجهها السعادة وأخبرتني: لم يهتم أحدًا لحديثي من قبل، شكرًا لك سيدتي.

ثم أضافتَ: والآن سأحكي الحكاية:

في إحدى الممالك البعيدة كانت توجد أميرة جميلة يتيمة الأب تعيش مع أمها في مملكة كبيرة. وعندما كبرت الفتاة وأصبحت في سن الزواج. أرادت

والدتها تزويجها، فأرسلتها لتتزوّج من أميرٍ يعيش في أحد الممالك البعيدة عن مملكتهم. وقبل أن تُرسل الأم ابنتها لمملكة الأمير، أعطتها قلادة فيها تعويذة كي تحميها من شرور الحاسدين والأشرار.

وأرسلت مع ابنتها خادمتها كي تساعدها وترعاها في الطريق حتى لا يحصل لها مكروه.

سألتُ في انبهار مصطنع جبراً لخاطرها: وماذا، حدث بعد ذلك؟

أجابتَ في انفعال وببراءة: لا تقاطعيني، أنتِ أسوأ مني، في الاستماع.

ضحكتُ كثيرًا، لقد عجزت عن الرد.

ولكنها أكملت: حسنًا. سأتابع.

سافرت الأميرة مع خادمتها، وكانت تركب على حصانها الذي يتكلّم واسمه فالدا. ولكن خادمة الأميرة كانت امرأة شريرة لا تحب الأميرة ولا تتمنى لها الخير. وفي الطريق شعرت الأميرة بالعطش الشديد، ونزلت عن ظهر حصانها كي تشرب من نهرٍ قريب، فسقطت قلادة الأميرة التي كانت ترتديها في النهر وذهبت بعيدًا. وعندما عرفت الخادمة الشريرة بسقوط القلادة، بدأت بحياكة الحيل الشريرة لها لكي توقعها في المشاكل والعقبات. وفي الطريق، وفي أثناء سير الأميرة مع خادمتها. طلبت الخادمة من الأميرة أن تتبادل معها

ملابسها. فتلبس هي ملابس الأميرة، والأميرة تلبس ملابس الخادمة. فوافقت الأميرة على طلبها. وعندما ارتدت الخادمة الملابس، هددت الخادمة الأميرة بأنها ستقتلها في حال أخبرت أحدًا بالسّر. وعندما وصلتا إلى قصر الأمير، أخبرته الخادمة أنها هي الأميرة التي كان ينتظرها، وأن الأميرة الحقيقيّة هي خادمتها، وطلبت الخادمة من الأميرة أن تذهب لحظيرة الأمير وتقوم بإطعام الإوز والاهتمام به. ولإخفاء أي شيء فعلته، قامت الخادمة بقتل حصان الأميرة خوفًا من أن يتكلّم ويفضح أمرها. وعندما عرفت الأميرة عن أمر مقتل فرسها، حزنت حزنًا شديدًا. وأخذت رأسه ووضعته بالقرب من القصر الملكي، عند مدخل حظيرة الإوز التي تعمل بها. وفي يوم من الأيام وعندما كانت الأميرة حارسة الإوز، تهتم به وتُطعمه ،كان يوجد شاب يرعي إوزة بالقرب منها. ولكنه عندما نظر إلى الأميرة حارسة الإوز تعجّب من شكل شعرها الذهبي اللامع الذي لم يرّ له مثيلًا أبدًا، فاقترب الشاب من الأميرة حارسة الإوز لكي يأخذ خصلة من ذلك الشعر الذهبي الجميل.

ولكن الأميرة لم تسمح له بذلك، وذهبت بعيدًا عن المكان الذي يتواجد به الشاب، تعجّب الشاب راعي الإوز من أمر الأميرة حارسة الإوز، وشك في

أمرها، فذهب إلى القصر وأخبر الأمير بما حصل معه فاستغرب الأمير من كلام الشاب.

ثم صمتت قليلًا وقالت: ألن تسألينني، ماذا حدث في النهاية؟

سألتها في انبهار: ما الذي حدث؟

أخبرتني ببراءةٍ: اختبأ الأمير في مكان قريب من الأميرة حارسة الإوز، وطلب من الراعي أن يقترب منها ويفعل ما فعله في المرّة الأولى، وعندما أقترب منها، نّهَرته، وحذّرته من الاقتراب منها مجددًا. تعجّب الأمير منها، وطلب أن يعرف حقيقتها، في البداية لم تكن تريد إخبار الأمير بشيء، لأنها خافت من شرّ الخادمة وآذاها. ولكن في النهاية أخبرت الأميرة، الأميرُ الحكاية وعاقب الخادمة وبعد ذلك عاشا سويًا في سعادة.

بعد أن انتهينا من القصة، جاءت أمها لتأخذها وشكرتني، أني تحملت إزعاجها. ولكني أخبرتها، أنها لم تزعجني على الاطلاق، فهي طفلة لطيفة. أخبرتني الطفلة أنها أحبت وجودي، وستأتي مجددًا، وستكون في انتظاري. الأطفال هم هبة من الله. هم تلك المنحَّة التي تعطيك شعورًا غريبًا، ولكنه رائع. أشعر أن الأطفال ملائكة، بالرغم من أفعالهم الشيطانية. بما أنها طلبت مقابلتي بالطبع سأقابلها مجددًا.

أ، ترى هناك تعويضًا عنك، لست أنت الوحيد الذي يحكي الحكايات. حكايات الطفلة أجمل من حكاياتك.

الفصل الحادي عشر

حبة البازلاء

اليوم لا أعلم إن كان جيد أو لا؟ في النهاية، يوم وسيمضى.

قررت الذهاب إلى المتنزه، لمقابلة الطفلة الصغيرة، كما أخبرتها.

دائمًا ما أُفي بوعودي، حتى لو كانت طفلة صغيرة.

لا يجب علينا كسر قلب أي أحد، حتى و إن كان طفلًا صغيرًا.

اِنتظرتها طويلًا كنت أعتقد، أنها لن تأتي. كان يجب إن تروا دهشتها عندما وجددتني في انتظارها. ركضت نحويّ وأخبرتني وهي تستجمع أنفاسها: لم يأتي أحد ويكون في انتظاري من قبل. شكرًا لك.

أخبرتها بابتسامة: لا داعي لشكريّ، أنتِ فتاة لطيفة جدًا.

سألتني ببراءة: ما اسمك؟ فأنا لم أعرفه بعد؟

أجبت: بيسان. وأنتِ؟

أجابتني: وأنا تيا روجر. سعدت بلقائك كثيرًا، هل نحن أصدقاء؟

أجبتُ بابتسامة: بالطبع، نحن كذلك.

سألتني ببراءة: ما رأيك في فستاني؟

أجبتُ بانبهار: جميل جدًا.

سألتني: أ تعلمين أمرًا ؟ أمي تقول أني أشبه أميرة حبة البازلاء، ألا تعرفين هذه القصة.

أومأت برأسي نافية، بالرغم أني أعرفها جيدًا، ولكن لم يهّن عليّ أن أكسر قلبها.

أجبتني في فرحة عارمة: حسنًا، سأقصها عليكِ، كما تفعل أمي.

وقبل أن تحكي الطفلة، و إذا أراك مقَّبلًا نحونا.

اقتربت منا وجلست بجوار الطفلة، دون أن تنطق بكلمة.

قالت الطفلة ببراءة: أتعرفينه؟

حاولت ألا أظهر انفعالي: لا أعرفه.

ابتسمتَ ليّ وقولت: زهرتي غاضبة فقط.

أجبتك بحزم: لست زهرتك.

أجبت ممازحًا: لم أكن أتحدث عنك، كنت أتحدث عن تيا.

إيها الوغد، لقد أحرجتني، فضلت الصمت ولم أُعَرك أي اهتمام، ونقلت الحديث إلى تيا: مستعدة لسماع قصتك عن البازلاء...

قاطعتني بسخرية: لم أعلم أنك ما زلتِ صغيرة، وتبهرك هذه القصص.

أخبرتك بانفعال: هل تحاول استفزازي؟

أجبت ضاحكًا: وجهك يبدو مضحكًا عندما تغضبين.

تدخلت تيا بيننا ببراءةٍ: صديقي بدر، لا تغضب صديقتي، لا أحتمل أن أراها غاضبة.

يا قلبي، يا لهذه البراءة، لقد أخذت قلبي حقًا.

نظر لها بدر بحنوٍ وقال: أفعل أي شيء من أجلك.

نظرتَ له ببراءة: حسنًا، ستستمع إلى قصتي. وبدأت بالسرد:

كان يا ما مكان، هناك مملكة يحكمها الملك وزوجته الملكة، وكانت الملكة صاحبة شخصية قوية وتختار للملكة كل شيء بنفسها، وأنجبت ولدًا جميلًا، وأعطته الكثير من الاهتمام، لدرجة أنها كانت تختار له كل شيء: كيف يأكل، وكيف يلبس، وكيف يتعلم وكيف يلعب، إلى أنّ كبر الأمير ووصل لسن الزواج. دعت الملكة الأمير إلى غرفتها، وسألها الأمير عن مرادها.

فأخبرته الملكة: أنت ابني الوحيد وقد كنت أختار لك كل شيء في حياتك.

أما الآن فقد كبرت، وحان الوقت لأن تختار فتاة لنفسك لتتزوجها.

واشترطت عليه، أن تكون أميرة حتى لتناسبه، ويجب أن تكون أنيقة أيضًا، وتعرف كيف تتحدث وكيف تختار ملابسها، والأهم من ذلك أن يكون صوتها جميل.

ثم صمتت قليلًا وقالت ببراءة: أسألا ماذا حدث بعد ذلك؟

أخبرنها معًا: ماذا حدث بعد ذلك؟

تابعت تيا في حماس:

وأعطت الملكة للأمير، أسماء قصور الملوك في الممالك المجاورة. وبدأ الأمير بزيارة القصور، ليجد أميرة ليتزوجها.

وفي القصر الأول وجد أميرة جميلة، تقرأ كتابًا، وحين تكلم معها لم يعجبه صوتها. فذهب إلى المملكة الثانية وقابل الملك وعرفه على ابنته، وكانت لا تهتم بنفسها. فعاد الأمير إلى مملكته، وأخبر أمه أنه لم يجد المناسبة. في أحد الأيام، كان الأمير جالسًا في شرفة قصره. شاهد فتاة تقترب من القصر، فنزل الأمير، وأستقّبل تلك الفتاة. وقد كانت في غاية الجمال والرقة، وحين سألها عن هويتها، أجابت بصوت جميل ،بأنها كانت مسافرة، وقد منعتها الأمطار من إكمال رحلتها. واستأذنت من الأمير أن تبقى في القصر حتّى تهدأ الامطار. ووافق الأمير على الفور، وسمح لها بالدخول، وحين خلعت معطفها

وجد ملابسها متسخة بالطين بسبب المطر، ومع ذلك أحبها. وذهب لأخبر الملكة بأن هذه الفتاة هي من يريد، ولكن حين رأتها الملكة رفضت طلب أبنها، لأن ملابسها متسخة، كمّا أنها تسافر دون حراس، ولكن بعد إصرار الأمير. قررت الملكة أن تعد لها اختبارًا و إن نجحت سوف توافق على زواجه منها.

ثم صممتَ تيا، يا إلهي النجدة أنها تريد أن نسألها ماذا حدث في النهاية.

سألتها في دهشة: وماذا حدث بعد ذلك؟

ابتسمت وقالت: أمرت الملكة الخدم أن يجهزوا غرفة الفتاة، وأن يضعوا عشر مراتب على السرير، وتوضع حبة بازلاء تحت المرتبة الأولى، وذهبت الفتاة إلى الغرفة فوجدت السرير عالٍ جدًا، فطلبت سلم من الخدم. ولكنها لم تتمكن من النوم بسبب حبة البازلاء. وعند الصباح ذهبت الخادمة تسال عن حالها، وأخبرتها الفتاة أنها لم تستطع النوم بسبب قسوة الفراش، وأن شيئًا تحت المراتب كان يضايقها. وذهبت الخادمة إلى الملكة وأخبرتها بكلام الفتاة. وهنا عرفت الملكة أن فتاة بهذه الرقة لابد أن تكون أميرة ووافقت على زواجها بالأمير وعاشا في سعادة. وها هي النهاية السعيدة. والآن سأرحل أمي ستأخذني، إلى اللقاء. سأتي مجددًا.

ثم ذهبت وتركتنا وحدنا، وأنت استغليت رحيلها، وأخبرتني: يا حبة البازلاء، لم أعلم أنك تحبين قصص الأطفال.

أجبتُ في انفعال: توقف، حسنًا. أين كنت؟

أجبتَ ممازحًا: أردت أن تشتاقي ليّ ولكن يبدو إنيّ لم أنجح.

أخبرتك بهدوء: لم تنجح ومنذ متى وأنت تعرف تيا؟

أجبتني: أعرفها، حتى قبل أن التقيك يا يقين.

سألتك سؤالًا: لماذا تقول ليّ يقين وهذا ليس اسمي؟

أجبت بحبٍ: لأني أشعر بأمان معك، أشعر بدفء قلبي، اليقين هو الاطمئنان، وأنا أطمئن بقربك، أنتِ يقيني.

سألتك سؤالًا مُغايرًا: هل ستأتي غدًا؟

أجبتَ وبدت على ملامحك الحزن: لا أعلم، ولكن ما أعلمه حقًا، هو هروبك المستمر والدائم، أخبرتك سابقًا، وسأخبرك الآن، لا سلّطة ليّ على قلبي، سواء أردت أو لم أرد، أنتِ بداخله.

ثم أضفت: ولكن لا سلّطة لك على قلبك أيضًا.

ثم ذهبت، دون أن تنتظر ردًا. أتمنى لو أخبرك أن الذكريات شاقة على النفس يا صديقي، إنها تطعن قلبك مرة ومن ثم يبقى الجرح نازفًا إلى الأبد. وأنا قلبي

ممزق، لا يصلح. بالفعل أنت محق، لا سلّطة ليّ على قلبي. لماذا الحب يفسد كل شيء؟

هل ستأتي؟ لا أعلم. لم أعد أنتظر كل مرة، تفتح جرحًا جديدًا، تجرح نفسك وتجرحني أنا أيضًا.

الفصل الثاني عشر

الأمير الضفدع

هذه الأيام أشعر أني مهلّكة، طاقتي تنفد بسهولة. الذهاب للعمل أصبح ثقيلًا جدًا. حتى الاستيقاظ أشعر أنه لا ينبغي عليّ ذلك. كم أتمنى لو كان هذا النوم أبديًا. ولكنها الحياة ويجب أن نستمر فيها. نستمر حتّى لو قطعت أيدينا وأرجلنا. ولكن ماذا نفعل ونحن لا نستطيع المضي قدمًا؟ كنت لن أذهب لمقابلة تيا، ولكني لم أستطع أن أخذلها. لا أعلم إن كان سيأتي بدر أو لا، لم يعد يهمني هو يجرحني وحسب. أو ربما أنا من أجرحه، لا أعلم. بالرغم من الثقل الذي أشعر به، إلا أني ذهبت لانتظارها.

عندما تقّبل وأراها من بعيد، هناك الكثير من الآلام تختفي، الأطفال هم الوصفة السرية لمعالجة القلوب. ولكن لا ننسي أفعالهم الشيطانية، فكلّ طفل هو ملاك صغير ولكن مع الغرباء فقط.

هذه المرة سألتني: ما رأيك في تسريحة شعري، هل أبدو جميلة؟

أجبتُ: تبدين رائعة.

مرّ ضفدع من أمامنا، لونه أخضر ويقفز في المكان.

سألتني ببراءة: هل تحبين الضفادع؟

أجبتُ بهدوء، وأنا من داخلي أشعر بالقرف: لا أحبها، لماذا؟

أخبرتني: ماذا لو كان هذا الضفدع أمير جميل؟ أمي أخبرتني بالأمس قصة الأمير الضفدع.

أجبتُ بذات بهدوء: ما زلت لا أحب الضفادع.

سألتني بدهشة: كيف لا تحبين الضفادع، وأنتِ تحبين صديقي بدر؟

يا إلهي، ماذا أفعل، لقد وقعت في الفخ، كيف أخرج من هذا المأزق، هذه الطفلة دمرت جبهتي، لحظة واحدة أنا لا أحب بدر.

لا تحشو رأس أطفالكم بقصص الأميرات أنها سيئة، علموهم شيئًا مفيدًا.

أجبتُ في هدوء: ولكني لا أحبه يا صغيرتي، هو صديقي فحسب.

أجابت ببراءة: حسنًا. كما تريدين، سأقص عليك حكاية الأمير الضفدع.

لقد ملّلت حقًا من الاستماع لهذه القصص. يا إلهي، طفلة صغيرة تجبرني على الاستماع إلى قصص سمعتها من جدتي خمسمائة مرة. لا بأس لا يوجد عقاب أسوأ من هذا، ولكن لا بأس أيضًا، أتمنى أن ينتهي هذا العذاب.

أجبتها: سأستمع.

وبدأت تسرد الحكاية:

كان هناك أمير وسيم، هاجم هذا الأمير في أحد الأيام، ساحرة شريرة، لكن لسوء كانت تمتلك قوة خارقة، فانتقمت من الأمير وقامت بتحويله إلى ضفدع، وألقته في إحدى الآبار العميقة، التي تقع في قصر الملك، ولكنه سيعود أميرًا في حالة واحدة، إذا أحبته إحدى الأميرات وأكل من أكلها، وشرب من شربها لثلاثة أيام متتالية، فبقي الضفدع حبيس البئر لعدة أيام.
وفي أحد الأيام، كانت الأميرة تلعب بكرة ذهبية وتلقي بها في الهواء، وبينما هي كذلك، فإذا بالكرة الذهبية تقع داخل البئر الذي يوجد فيه الضفدع.
وكان الضفدع يمكنه الكلام فأخبرها أنه سيساعدها على استعادة الكرة الذهبية، فوعدته أن تعطيه كل ما يريد مقابل استعادة الكرة.
أخبر الأميرُ الضفدعُ الأميرةَ بأنه يريد أن يأكل من أكلها ويشرب من شربها وأن تحبه الأميرة. وأن هذه المطالب هي كل ما يتمناه، ووعدته الأميرة بأنها تستحق كل مطالبه إذا ساعدها على استعادة كرتها الذهبية. غطس الضفدع إلى أسفل البئر والتقط الكرة الذهبية بفمه وساعدته الأميرة على الخروج من البئر.
وما أنّ خرج الضفدع من البئر حتّى التقطت الأميرة الكرة الذهبية من الأمير الضفدع وهربت بها دون أنّ تلتفت إليه أو تحقق أيًّا من مطالبه التي وعدته

بها. وبينما كانت الأميرة مع والدها والخدم تتناول طعام العشاء تسلل الضفدع الذي غادر البئر ليصل إلى غرفة الطعام، وطرق الباب وقال: "أنا من ساعدتُ الأميرة على استعادة الكرة الذهبية من البئر بعد أن سقطت هناك، وكانت الأميرة تبكي حزنًا على سقوطها."

وعندما سمعت الأميرة صوت الضفدع أصبح وجهها شاحبًا من شدة الدهشة. فسألها والدها عن صاحب الصوت فأخبرته الأميرة بكل ما حدث معها في حديقة القصر في اليوم السابق، وكيف أنها وعدت الضفدع بكل ذلك ولم تنفذ ما وعدته به. أخبر الملك ابنته بأن الإنسان يجب عليه أن يفي بوعوده للناس، وطلب منها أن تُدخِل الضفدع وأن تجعله يأكل من أكلها ويشرب من شربها لمدة ثلاثة أيام، كان الأميرة تنظر إلى الضفدع وتحاول أن تصرف نظرها عنه كي تستطيع أن تأكل وتشرب، فمظهره لم يكن يُشعرها بالراحة أثناء تناول الطعام والشراب. لكن الأميرة في النهاية رضخت إلى مطالب والدها، وكانت تجعل الضفدع يأكل من أكلها ويشرب من شربها وينام إلى جوارها لمدة ثلاثة أيام حتى أحبته.

وما أنّ استيقظت الأميرة في صبيحة اليوم الرابع حتى تفاجأت بوجود أمير وسيم إلى جانبها، والذي أخبرها حينها بالقصة كاملة وما فعلته به الساحرة

الشريرة حين حولته إلى ضفدع حين هاجمها، وأن ما فعلته الأميرة مع الضفدع الصغير كان السبب في عودته إلى الهيئة الطبيعية له، وفي نهاية قصة الأمير الضفدع تزوج الأميرة وعاشا في سعادة وهناء.

سألتني بعد أن انتهت من القصة: لماذا كل النهايات تنتهي بزواج الأمير بالأميرة؟

أجبتُ بهدوء: لا أعلم صدقيني يمكنك أن تسألي أمك ربما تعرف؟

وهنا قمت بتوريط شخص غيري، أتمنى أن لا تدعو عليّ، أو تسبني. ولكنني ملّلت بصدق، أنا بشر أيضًا. أو ربما لأني مجهدة ومتعبة، وروحي ممزقة.

أخبرتني: لن أتي غدًا، ولا أعلم متى سأتي مجددًا.

حمدت الله كثيرًا حينها، ولكني قلت بحزن: سأنتظرك، حتى تأتي.

بالطبع كنت أكذب، أنا مرهقة ومتعبة. متعبة حتى من ذاتي. لا أريد الحديث مع أي شخص، أريد البقاء وحدي فحسب. غادرت تيا وأنا أيضًا ذهبت لمنزلي. لم يأت بدر، ولن يأت، لقد ملّل.

سيأتي يوم ونملّ. لا تختبروا صبر من يحبكم، فلن يبقي يحبكم للأبد. هذه هي الطبيعة البشرية، نحن بطبيعتنا نكره الروتين، نكره الرفض المتكرر.

نكره الحديث، نكره التجمعات. نكره من يفرض علينا سيطرته. نحب الحرية كالطيور تمامًا، ولكن ليس كل طير يستطيع الطيران.

الفصل الثالث عشر

جرّة السمن

بينما أنظر إلى سقف غرفتي، وأدقق النظر. في الزاوية هناك بيت للعنكبوت، منسوج بدقة وعناية. أتخيل إنه سيصبح عملاق ويلتهمني. غرفتي مظلمة، أحب الإضاءة الخافتة. لو أحدًا يملك خيالًا خصب، لكان كل ما يراه هو حقيقة مؤكدة. أفكر في العمة وجدان، أفكر في الذهاب إليها جديًا. الساعة الآن الثانية عشر ونصف بعد منتصف الليل. قد يكون فرط من الجنون، إن ذهبت إليها. حسنًا. سأحاول النوم، ولكن لا أستطيع. ما هذا الأرق المفاجئ؟ أسوأ ليلة ستمر عليّ. حسنًا، لن أفكر في أي شيء، الحياة جميلة، الحياة وردية "الدنيا ربيع، والجو بديع ". لا شيء ربيعًا، أنا أكذب. تذكرت الآن لِمَ العمة وجدان، لم تعد تساعد أي عربي بعد الآن، ومن قبل أن أروي مع حدث، أقول بصدق هي لم تكن تستحق ذلك. في نهارًا ما، وعندما كنت ذاهبة إليها لأعيد شراء حاجياتي. كان نهارًا غريبًا، في عاداتها أن تقوم باستقبالي وتبتسم في وجهي، وتقوم بمناوشتي. ولكن هذا لم يحدث، فقد كانت حزينة وبائسة، لم أرها بهذه الحال من قبل.

اقتربت منها وحاولت أن أخرجها من حالتها وضممتها إليِّ: كيف لهذا الجمال، أن يحزن؟

لم تجبني أو تبدئ أي ردة فعل، ما بها؟ هذه ليست وجدان؟

ربما خطفها الفضائيون، وقاموا باستبدالها، حتى أنها لم تسبُني. عندما تسبني أعلم أن كل شيء بخير، فهي تناوش من تحبهم.

بعد محاولات كثيرة وطويلة، عرفتُ أن شابًا عربيًا قام بالنصب عليها. لم أستطع إلاَ أن أضحك، لم أستطع أن أكتم ضحكاتي، أنا بشر أيضًا. وعندما بدأت بالضحك، تحولت وجدان وبدأت تسبُني: فتاة سيئة، هل أمك قامت بتربيتك من الأساس، جيل فاسد ونصاب، لا تحترمون حزن أحد، ولا أن يعاملكم أحدًا بطيب.

توقفت عن الضحك وأخبرتها: هناك فرق كبير، بين أن أعامل الناس بطيبٍ وأن أجعلهم ينصبون عليّ، ويستغلون هذه الطيبة ويعتبرونها غباء، القانون لا يحمي الأغبياء يا عمة.

تجيب بحدة: هل عندما أفعل الخير يكون هذا جزائي، لماذا تجعلون الناس تفقد الثقة أن تساعد غيرها؟

حزنت وتبدلت ملامحي، وكدت أن أبكي وربما بكيت: لم تكوني تستحقي هذا، الخذلان ليس مؤلمًا، الخذلان قاتل يا عمة، أن شخصًا واحدًا وثقتِ به ويخذلك، يجعلك تفقدين كل ثقتك بالعالم.

ضمتني لحضنها وحاولت أن تهدئ من روعي: فتاة غبية، لماذا تبكين، من تعرض للنصب أنا أم أنتِ؟

أجبت في غَّمرة بكائي: أنتِ.

قالت في حنوٍ: إذاً توقفي عن البكاء يا غبية، لا شيء يستحق، أن نبكي عليه، ربما كان مقدرًا أن يحدث هذا.

في الواقع كنت أبكي على نفسي، كنت أُرثيني، لا أُرثيها، كنت أبكيني، لا أبكي عليها.

قالت ليّ بهدوء: لا بأس ربما أكون أنا الفلاح صاحب جرّة السمن.

كففت عن بكائي ومسحت دموعي، وأخبرتها في اِندهاش: ما حكايته، تبدو حكاية مشوقة؟

أجبتني في هدوء: أعلم أنك تحبين الحكايات القديمة. لهذا سأقصها عليك.

أجبتُ بحماس: وأنا كلّي إنصات.

بدأتَ في السرد: أن باسم الله. جرّة السمن

كان لرجل عجوز بضع غنمات، كان كل يوم يأخذ حليبها ويصنع منه بعض السمن، ويخبئه في جرّة. وظل على هذه الحال أيامًا، حتى امتلأت الجرّة، إلا قليلًا. عندئذ حملها ومضي بها إلى المدينة، وهناك باع السمن، وقبض ثمنه ليرة ذهبية، وضعها في الجرّة.

وكان التعب قد نال منه، فأستلقي في ظل شجرة وأسند الجرّة إلى قطعة حجر، وأستغرق في نوم عميق. ولما استيقظ العجوز، حمل جرّته ومضي بها إلى السوق ليشتري بعض الحاجات. ولكنه مدّ يده في الجرّة ليطمئن إلى الليرة الذهبية، فلم يجدها، عندئذ تألم أشد الألم، وقرر المضي إلى قاضي البلاد يشكو له الأمر. ولما سمع القاضي حكاية الفلاح العجوز، أرسل المنادي في المدينة يدعو الناس إلى حضور محاكمة الحجر السارق. وعندما عقّدت المحكمة حضر ناس كثير وكانت على منصة القضاء قطعة حجر، وكان الناس يتأملونها وهم يغمغمون متسائلين هل سرق الحجر؟ وكيف ستكون محاكمته. وتأخر القاضي عن قصد ولما دخل أعلن أنه سيحاكم هذا الحجر، وعندئذ ضج الناس في قاعة المحكمة ساخرين، فأظهر القاضي غضبه، وحكم على الحاضرين أن يدفع كل منهم ليرة غرامة. ثم أمر الحرس أن يقف بباب المحكمة، ووضع قدرًا مملوءة بالماء. وكان على كل خارج من

المحكمة أن يلقي في تلك القدر ليرته. ووقف القاضي يراقب الخارجين واحدًا واحدًا وكاد أن يخرج الجميع، ولم يبق سوى عدد قليل. ثم تقدم أحد الرجال متثاقل الخطا، وألقي بليرته مترددًا، وبعد أن ألقاها، صاح القاضي بالحارس: أمسك باللص.

فتعجب الرجل وسأله: وكيف عرفت أني اللص، فأجاب القاضي: أنظر إلى السمن الطافي على وجه الماء. وأقرّ الرجل بذنبه، فسيقَ إلى السجن وأعاد القاضي إلى الفلاح العجوز ليرته، فشكره، وذهب إلى السوق فاشتري بعض حاجاته، ثم رجع إلى قريته سعيدًا.

هذه القصة يا بنيتي تكشف لك مدى بساطة الفلاح وخبث السارق، وذكاء القاضي، وهي تؤكد العدل بوصفه، تأخذ على يد الجاني، وتعيد الحق إلى صاحبه.

ثم أضافت: ربما كان درسًا صغيرًا، لأتعلم إلا أثق في الناس كثيرًا، ليس الجميع ودودًا مثلك يا فتاة، حتى أني أحيانًا أزيد في سعر الخضروات لك، وأنتِ لا تتكلمين.

قاطعتها بانفعال مصطنع: هكذا إذاً، كنتِ تنصبين عليّ يا وجدان، آه قلبي، لا أمان للبشر.

وبدأت أقلدها بطريقة مضحكة: جعلتني أضحوكة، يا إلهي لماذا يحدث هذا معي، ألا يوجد خير في هذه الدنيا. ومن ثم ضحكتُ.

قامت بضربي: فتاة غبية، لن أخبرك بأي شيء من الآن، ولن أتحدث معك مجددًا.

أجبتُ بطفولة: ولكني سأتحدث معك.

أخبرتني بحنان: حسنًا. أرحلي، وخذي هذه الفاكهة معك، لا تدفعي ثمنها.

أجبتُ بإصرار: بل سأدفع، يكفي ما حدث لك، هل تريدين خسائر جديدة؟ لم تتحدث معي، أو تجادلني. وأنا لم أرد أن أراها تعاني.

بعيدًا عن الضحك، لم تكن تستحق أن يحدث لها هذا، كيف يمكن لشخص أن يخذل شخصًا ساعده، كيف سيثق في الناس بعدها، هل سيساعد أحدًا بعد هذا؟

يا رفاق لا تكسروا قلب أحد أو ثقته. هذه الأشياء غالية، وثمينة لا تقدر بثمن. عمتي وجدان وقلبها الطيب. عندما تذكرت الحكاية بدأت أغمض عيني رويدًا، والنوم أخيرًا. بعد صراعات وأفكار مزعجة.

الفصل الرابع عشر

الملك لير

الخريف هذا هو فصلي المفضل، بالرغم إني أفضل الشتاء أكثر، ولكن لا بأس. رائحة الجو العطرة، تساقط الأرواق، الطقس المنذر بالشتاء. هذا هو طقسي المفضل. رائحة المطر. غيمة تطفو في السماء. كوبًا من القهوة الساخنة. بعض النسيم البارد، يلامس وجنتيك. الخريف للبعض قد يكون ثقيل ومتعب، ولكن بالنسبة ليّ هادئ، ويبعث السلام في روحي. أشتقت للمتنزه، و إلى تيا. الطيور. الأطفال. البحيرة. بالنسبة لبدر لا أعلم عنه شيئًا، يبدو إنه غاضب قليلًا، أو كثيرًا، لا أعلم. كنت جالسة على المقعد بمفردي، و إذا أقبلّتَ تيا تفتح ذراعيها كأنها طير صغير. وتركض نحوي، وعندما اقتربت قامت بضمي إليها.

وأخبرتني بحب: أشتقت إليكِ كثيرًا، صديقتي، أين كنتِ؟

أجبت بحنوٍ: وأنا أيضًا أشتقت إليك كثيرًا جدًا، كنت متعبة قليلًا.

سألتني بتعجب: ما بك هل أنتِ بخير، هل أصبحتِ بخير؟

أجبتُ بعطف: بالطبع أنا بخير، وأنتِ كيف حالك؟

أجابتَ ببراءة: أنا بخير حدثت الكثير من الأشياء التي أريد أخبرك بها.

أجبتُ بهدوء: أخبريني أذًا سأستمع.

أخبرتني عن شراء عصافير لها، وأن ألوانها متنوعة، فهناك عصفور ملون بالأزرق والأخضر وهناك خليط من اللون الأسود والأحمر على جناحي العصفور. وعصفور أبيض فقط هناك نقاط صفراء في جناحيه. وعصفور لونه يبدو بنفسجيً ولكنه ليس كذلك ولكنه جميل الطلَّة. وأخبرتني عن القصة التي أخذتها في المدرسة وحكتها كأنها شخصًا كبير كالتالي:

كان الملك لير عجوزًا مُنهَك القوى. وكان قد سئم من إدارة شئون مملكتِه، وأراد أن يُنهيَ أيامه الباقية في الحياة في هدوء بالقرب من بناته الثلاث. وكانت اثنتان من بناته متزوجتين من دوقَي ألباني وكورنوول، وكان دوق بيرجاندي وملك فرنسا متقدمَين لخطبة كورديليا، أصغر بناته.

استدعى لير بناته الثلاث معًا، وقال لهن إنه نوى أن يُقسم مملكته بينهن. ثم أضاف: «لكن أولًا أود أن أعرف مقدار حبكن

لي».

قالت جونيريل، التي كانت في واقع الأمر امرأة شريرة جدًّا ولم تكن تحب أباها على الإطلاق، إنها تُحبه أكثر مما يُمكن للكلمات أن تصف؛ فهو بالنسبة

إليها أغلى من عينيها والكون والحرية؛ أغلى من الحياة والمكانة والصحة والجمال والشرف.

وقالت ريجان: «أحبك قدر حب أختي لك وأكثر؛ فأنا لا أهتم بشيء سوى حب أبي».

سُر لير بشدة بما قالته جونيريل وريجان من بعدها، والتفت إلى ابنته الصغرى، كورديليا، قائلًا: «والآن، يا بهجة النفس،

أيتها الأخيرة من بناتنا، لا الأخيرة في محبتنا، لقد أبقيت لكِ أفضل جزء في مملكتي. فما الذي بوسعكِ أن تقوليه؟»

ردت كورديليا: «لا شيء يا مولاي».

قال الملك: «لا شيء يأتي من لا شيء! تكلَّمي مرة أخرى».

ردت كورديليا: «أحب جلالتك قدر ما تستوجبه بُنوَّتي لك؛ لا أكثر ولا أقل».

وقد قالت هذا لأنها كانت تمقُت الطريقة التي عبرت بها أختاها عن حبهما لأبيهما، في الوقت الذي لم يكن فيه لديهما فعلًا أي إحساس حقيقي برباط البنوة تجاه أبيهما العجوز.

وأضافت: «إنك ولدتَني وربَّيتني وأحببتني، فأنا أجزيك على هذه الفروض ما تستوجبه مني: أطيعك وأحبك وأجلُّك إجلالًا كبيرًا.» جونيريل وريجان.

أن لير، الذي كانت كورديليا ابنته المفضلة، كان يأمل أن تتفوَّق على أختَيها في التعبير عن حبها له؛ لذا قال لها: «ابتعدي عني؛ فقد أقصيتكِ منذ اليوم عن قلبي ونفسي».

حاول إيرل كِنت، الذي كان أحد رجال البلاط والقادة العسكريِّين المفضلين لليرِ، أن يدافع عن كورديليا، لكن لير ما كان ليسمع له. وهكذا، قسَّم لير المملكة بين جونيريل وريجان، وأخبرهما أنه سيَحتفظ فقط بمائة فارس لخدمته، وسيعيش مع

كل منهما شهرًا بالتناوب.

عندما علم دوق بيرجاندي أن كورديليا لن تحصل على أي نصيب في المملكة، تخلى عن عرضه بخطبتها. لكن ملك فرنسا كان أكثر حكمةً منه، وقال: «إن ابنتك التي بلا مهر هذه، أيها الملك، ستكون ملكة على نفسي، وعلى شعبي، وعلى ديار فرنسا الجميلة».

قال الملك: «خذها، خذها؛ إذ لا نريد أن تقع عليها بعد اليوم عيننا».

وهكذا، أصبحت كورديليا ملكة فرنسا، وصدر أمر بنفي إيرل كِنت، لتجرُّؤه بمحاولة الدفاع عنها، من المملكة. وذهب الملك ليُقيم لدى ابنته جونيريل، التي أخذت كل شيء كان لدى أبيها ليعطيه، وبدأت الآن تتذمَّر حتى من

احتفاظه بالمائة فارس الذين أبقاهم لخدمته. كانت قاسية وعاقةً له، وقد كان خدمها يرفضون إطاعة أوامره أو يتظاهرُون بأنهم لم يسمعوها.

تظاهر إيرل كِنت، الذي حُكم عليه بالنفي، بأنه ذهب إلى بلد آخر، ولكنه بدلًا من ذلك عاد متنكِّرًا في شخصية خادم وعمل في خدمة الملك. والآن، أصبح لدى الملك صديقان؛ إيرل كِنت، الذي كان يعيش معه كخادم، والبهلول، مُضحِك الملك، الذي كان مخلصًا له. قالت جونيريل لأبيها بوضوح إن فرسانه لا يقومون بشيء سوى إثارة الشغب والصخب في بلاطها، وترجَّته بشدة أن يحتفظ في خدمته ببضعة رجال كبار السن مثله.

قال لير: «حاشيتي من صفوة الرجال. جونيريل، لن أزعجك أكثر من ذلك، فلم تزل لي ابنة أخرى».

عندما سُرِّجت خيوله، انطلق متجهًا مع أتباعه إلى قلعة ريجان. لكن بدا أن ريجان، التي فاقت فيما مضى أختها في التعبير عن حبها للملك، قد فاقتها الآن أيضًا في سلوكها العاق تجاه والدها؛ إذ قالت إن خمسين فارسًا كثيرون جدًّا، وقالت جونيريل (التي أسرعت إلى قلعة أختها لتَمنع ريجان من إبداء أي مشاعر طيبة تجاه الملك العجوز) إن خمسة فرسان كثيرون جدًّا، حيث إن خدمها يُمكنهم رعايته.

عندما رأى لير أن ما تريدانه بالفعل هو أن تتخلَّصا منه، تركهما. وقد كانت تلك الليلة ليلة عاصفة وموحشة، وأخذ يهيم في الأرض البور وقد كاد يُجن من البؤس الذي يشعر به، ولم يكن له رفيق سوى البهلول المسكين. لكن بعد فترة قصيرة عثر عليه خادمه، إيرل كِنت الطيب، وأقنعه في النهاية بأن يحتمي بكوخ صغير مهجور. وفي الفجر، نقل إيرل كِنت ملكه إلى دوفر، وأسرع إلى بلاط ملك فرنسا ليخبر كورديليا بما حدث.

أرسل زوج كورديليا معها جيشًا واستطاعت بمساعدته الذهاب إلى دوفر. وهناك، وجدت الملك لير المسكين، وهو يهيم على وجهه في الحقول، مرتديًا تاجًا من نباتات القراص والأعشاب. أحضره أتباعها وأطعموه وألبسوه ثيابًا لائقة، وجاءت إليه كورديليا وقبلته.

قال لير لها: «أتوسل إليكِ أن ترفقي بي، انسي واصفَحي؛ إنني شيخ أحمق». لقد أدرك الآن أخيرًا مَن أكثر بناته حبًّا له، ومن كانت أحق بحبه.

كوَّنت جونيريل وريجان جيشًا مشتركًا لقتال جيش كورديليا، ونجَحا في مهمتهما، وألقيا بكورديليا وأبيها في السجن.

وعرف زوج جونيريل، الذي كان رجلًا طيبًا، ولم يكن يعرف مدى خبث أخلاق زوجته، حقيقة القصة بالكامل، وعندما عرفت جونيريل أن زوجها أدرك

طبيعتها الشريرة، قتلَت نفسها، بعد فترة قصيرة من قتل أختها ريجان بالسم، بسبب الغيرة.

لكنهما كانا قد خطَّطا لشنق كورديليا في السجن، ورغم أن دوق ألباني قد أرسل رسلًا على الفور لوقف هذا، فقد كان الأوان قد فات. جاء الملك العجوز يمشي مترنحًا إلى خيمة دوق ألباني، وهو يحمل جسد ابنته العزيزة كورديليا على ذراعيه.

كورديليا في السجن.

وبعد قليل، والكلمات التي تُعبر عن حبه لها كانت لا تزال على شفتَيه، وقع على الأرض وهي لا تزال على ذراعيه، ومات.

بالرغم أنني ملّلت إلا إنني ظلّلت أستمع جيدًا.

أخبرتني: صديقتي لا تفرطي ببدر.

دهشتُ مما تقول وسألت: لماذا تقولين ذلك؟

أجابتَ ببراءة: أنه يهتم بأمرك حقًا.

أردت إن أخبرها أني لا أعرف ماذا أفعل؟

ولكن قمّتُ بأخبارها: سأفعل.

أخبرتني ببراءة: عديني أذًا.

يا الله أنا في ورطة أنقذني، لا أستطيع أن أعدها بشيء أنا حتى لا أعلمه. والحمد لله أمها جاءت لتأخذها، وغادرت وتركتني بمفردي. لا أعلم ماذا أفعل؟ لماذا الجميع يريدني أن أفعل شيء لا أريده. أنا فقط أقف مكتوفة الأيدي، أعلم أنه لا يمكنني تغيّر أحداث العالم، لكنّ أحداث العالم جميعها تغيرني.

الفصل الخامس عشر

الصياد

قبل خمس سنوات، لم أكن أعرف العمة وجدان، في الواقع منّ عرفني عليها هو خالد. خالد خطيبي بالمناسبة وكنا سنتزوج بعد شهر أو أكثر، ولكنه توفي في حادث.

أول لقاء ليّ بها، كانت تضرب خالد.

وأخبرته: أين عثرت على هذه الأميرة إيها الصياد اللئيم.

أجابها ممازحًا: لا أرى أميرة غيرك هنا.

عندها ضربته على رأسه: ما زلت مشاغبًا كما أنت.

ومن ثم نظرت إليّ بحب: باسم الله يخزي العين، كيف قبلت بهذا القرد يا فتاة؟ حاولت إلا أضحك، بالمناسبة خالد ليس قردًا، كان يمتلك عينان لونهما أخضر مائل للعسلي، لا تدري ما لونهما حقًا، ولكنك تغرق فيهما. كان عاديًا ولكنه كان جميلًا جدًا. ولكن العمة وجدان لا تري ذلك، دائمًا ما كانت تمازحه، وتخبره أنه مثل القرد.

أول حكاية سمعتها منها كانت في هذا اليوم، كان يومًا مميزًا جدًا.

كان أخر يوم أرى فيه خالد، أخبرني أنه سيعود، ولكنه لم يعد الكاذب. بدأت عمتي وجدان الحكاية بهدوء بالطبع باتخاذ طابع ألف ليلة وليلة:

كانت هناك أميرة تدعى شمس ووالدها الملك نعمان كانت ابنته الوحيدة والمدللة والتي لا يرفض لها أي أمر أو طلب داخل القصر فكل من هناك يعمل في خدمتها ولكن الأميرة كانت تشعر بالحزن فلا يوجد ما يسعدها في هذه الحياة على الرغم من جميع أنواع الترف المحيطة بها غلا أنها كانت حزينة دائمًا وهو ما كان يشغل والدها وقد حاول مرارًا أن يسري عنها وأن يأتي لها بأغلى الهداية حتى يراها سعيدة ولكن هذا لم يكن يحدث أبدًا.

وفي أحد الأيام وبينما كانت الأميرة نائمة لم تستيقظ بعد سمعت صوت موسيقى الناي الحزينة تشدو من خارج القصر فانتبهت واستيقظت وظلت تسمع للعزف حتى توقف فجأة، وفي اليوم التالي تكرر نفس العزف في نفس الوقت وظلت الأميرة كل يوم تنتظر العزف وتستمع له في انبهار، وكانت ترسم في مخيلتها صورة لهذا العازف مرهف الحس وكانت تتخيله أميرًا ووسيمًا حتى أن وصيفتها ذهبت للملك وأخبرته عن اهتمام الأميرة الشديد بعزف الناي.

أمر الملك على الفور رجاله بالبحث عن مصدر صوت الناي و إحضار العازف فورًا وان يعاملوه معاملة كريمة ويخبروه برغبة الملك في رؤيته، وفي اليوم التالي وفي نفس الميعاد انطلق صوت الناي وبدأ العزف فقام رجال الملك بالتوجه إلى مصدر الصوت وأبلغوا العازف بما كان من أمر الملك فقام معهم وذهب للملك الذي قام باستقباله وأرسل في طلب ابنته لترى عازف الناي وعندما علمت الأميرة شمس بوجود عازف الناي في القصر أسرعت على الفور حتى تراه ولكنها ما أن وصلت إلى قاعة الملك حتى توقفت في مكانها مذهولة فقد وجدت رجل فقير دميم الوجه رث الملابس تظهر عليه ملامح الفقر والجوع وهو عكس الصورة التي رسمتها تمامًا، وعندما ذهب العازف ليعرفها بنفسه همت بالانصراف ولم تعطيه انتباهًا مما تسبب في الإحراج والألم له.

وحتى يتدارك الملك ما فعلته ابنته أثنى على عزف الصياد وبدأ يسأله عن مهنته ومما يتكسب عيشه فقال الرجل أنا صياد أدعى فرحان ولكن هذا هو اسمي فقط وليس حالي فأنا لا أعمل منذ فترة طويلة فقد تدمرت مركبي وأخذتها الرياح في البحر بعيدًا ونجوت أنا وأصبحت بلا عمل وكل ما أفعله هو ان أعزف على الناي، وهنا تعاطف الملك مع الصياد فرحان وقرر أن

يساعده ويعطيه ما يريد ولكن الصياد أبى أن يشفق عليه أحد وخرج مسرعًا من القصر وابتعد بعيدًا، وعندما عاتب الملك ابنته على تصرفها مع الصياد لم ترد بكلمة واحدة وبدت حزينة تعسة.

وفي يوم من الأيام وبينما كانت الأميرة ترتدي ملابسها، قررت أن تلبس أفخم الثياب وأفضل المجوهرات وتخرج في نزهة للغابة، ولكن بدون حرس فهي لا تريد إي إزعاج منهم واقترحت وصيفتها عليها أن تبلغ الملك إلا أن الأميرة شمس هددتها بقطع رقبتها فما كان من الوصيفة إلا أن تخضع لكلام الأميرة ولكن صممت أن تذهب معها ولا تتركها وحدها أبدًا، ولم تكن تعلم ان هناك من يتربص بها وبالملك من أعدائه.

وعندما خرجت الأميرة والوصيفة من أحد الأبواب الخلفية للقصر، وجدت نفسها داخل الغابة وظلت الأميرة تمشي في الغابة وتستمتع بالمناظر الخلابة بها هي ووصيفتها حتى ظهر فجأة أمامها مجموعة من اللصوص وقرروا قتلها هي والوصيفة وظلت الأميرة شمس تصرخ هي والوصيفة حتى ظهر الصياد الذي سمع صراخ بالغابة فتوجه على الفور، ليجد الأميرة في ذلك المأزق، فقرر تخليصهم من اللصوص فقد كان يتمتع بالقدرة على القتال والمصارعة وبالفعل تغلب الصياد في شجاعة فائقة على اللصوص وكانت

الأميرة مبهورة من قوته أمام أعدائه حتى تخلص منهم جميعًا وانطلقوا مهرولين من الخوف.

وبعد ذلك أخذ الصياد الأميرة والوصيفة وعاد بهم إلى القصر فوجد الملك وقد أخذه القلق وأرسل رجاله للبحث عن الأميرة، وما أن دخل ثلاثتهم حتى فزع الملك لما وجد عليه من هيأة ابنته ولكنه اندهش لما وجدها مبتسمة وسعيدة ولما سألها أجابت أنها معجبة بشجاعة الصياد الذي استطاع قهر اللصوص وحمايتها منهم، وفهم الملك مراد ابنته.

وهنا عرض الملك على الصياد أن يزوجه ابنته وأن يصح أحد رجاله المقربين ففرح الصياد لأنه كان يحب الأميرة ولكنه لم يحلم يومًا ان تصبح زوجته وتمت مراسم الزفاف التي استمرت سبعة أيام وصار الناس يتحكون بقصة الأميرة شمس وزواجها من الصياد.

وأخبرتني: أنتِ أميرة، وهذا القرد هو الصياد.

ضحكت يومها وأخبرتها: أرجوكِ، لا تقولي له هذا، أنه جميل جدًا.

أجابت ممازحةً: القرد في عين حبيبته غزال.

تدخل قائلًا: ألا ترين يا وجدان، أنها تحبني، حتى و إن كنت قردًا.

أخبرتهَ: كنت أعلم أن الحب أعمي، ولكني لم أعرف إنه أعمي لهذه الدرجة.

لم نستطع أن نجادل أكثر، فقط ذهبنا. بالرغم أنه ذهب ألا أنه ترك ليّ العمة وجدان. لا بأس لن نأخذ كل شيء في الحياة، هناك أمور لابد أن نخسرها. فالخسارة هي جزء من الحياة في النهاية.

الفصل السادس عشر

ملك الموت

بعد العمل ذهبت للعمة وجدان، لأراها. لماذا؟ لا يوجد سبب فقط اشتقت إليها. كانت جالسة أمام متجرها وتقرأ الصحيفة.

سألتها: كيف حالك؟

أجابت: بخير وأنتِ كيف حالك؟

أجبت: بخير.

سألتني بعطف: لا يبدو أنك بخير، الهالات السوداء تحت عينيكِ تفضحك.

أجبت بحزن: فقط العمل والتوتر والضغط.

سألتني بعطف: لا تكذبي على وجدان، كنت تبكين، ولكن إلى متى يا طفلتي؟

أجبت وانفجرت في البكاء: لا أعلم، إلى متى، حقًا لا أعلم.

ضمتني في حضنها وأخبرتني: هوني عليك وهوني على قلبك، كان مقدرًا أن يحدث.

أخبرتها في غَّمرة بكائي: كنا سنتزوج، كيف حدث هذا فجأة.

أخبرتني: لا تفعلي مثل الوزير الذي أراد أن يهرب من ملك الموت ولكن كان أمر الله نافذًا.

مسحت دموعي وسألت في استغراب: ماذا تقصدين يا عمة؟

أجابت: سأحكي لك حكاية وزير سيدنا سليمان وملك الموت، وأتمنى أن تفهمي ما أقصده بعد ذلك.

ثم أضافت: ذُكر أن وزيرًا جليل القدر كان عند داود عليه السلام.

فلما مات داود صار وزيرًا عند سليمان بن داود.

فكان سليمان عليه السلام يوماً جالسًا في مجلسه في الضحى. وعنده هذا الوزير فدخل عليه رجل فسلّم عليه وجعل هذا الرجل يحادث سليمان ويحدّ النظر إلى هذا الوزير ففزع الوزير منه.

فلما خرج الرجل قام الوزير وسأل سليمان وقال: يا نبي الله! من هذا الرجل الذي خرج من عندك؟ قد والله أفزعني منظره؟

فقال سليمان: هذا ملك الموت يتصور بصورة رجل ويدخل عليّ.

ففزع الوزير وبكى وقال: يا نبي الله أسألك بالله أن تأمر الريح فتحملني إلى أبعد مكان إلى الهند. فأمر سليمان الريح فحملته. فلما كان من الغد دخل

ملك الموت على سليمان يسلم عليه كما كان يفعل. فقال له سليمان: قد أفزعت صاحبي بالأمس فلماذا كنت تحد النظر إليه؟ فقال ملك الموت: يا نبي الله إني دخلت عليك في الضحى وقد أمرني الله أن أقبض روحه بعد الظهر في الهند فعجبت أنه عندك. قال سليمان: فماذا فعلت؟ فقال ملك الموت: ذهبت إلى المكان الذي أمرني بقبض روحه فيه فوجدته ينتظرني، فقبضت روحه؟

ثم قالت: يا صغيرتي ما حدث كان مقدرًا. ماذا يحدث لو كنتِ تزوجته ومات أيضًا، كنتِ ستصبحين أرملة، وأنتِ ما زلتِ صغيرة، والعمر أمامك طويلًا.

ثم ضحكت وقالت: لقد كان قردًا، لو كان جميلًا قليلًا، كنتِ ستموتين وراءه؟

أجبت برجاء: عمة وجدان أرجوك، أنتِ تعلمين أنه كان جميلٍ، فلا تحاولي غيظي.

أجابت بجدية: حسنًا. كان مقبولًا، هل ستبكين عليه ما تبقي من العمر؟

الفتيات في عمرك تزوجن وأنجبن وتطلقن مرتين، وأنتِ ما زلتِ تبكين على الاطلال.

سألتها: وهل أملك قلبي يا عمة، هل أحدًا يملك قلبه؟

النسيان ليس زرًا يمكنني ضغطه كما أشاء. لو كان كذلك لكان شيئًا سهلًا علينا التجاوز والمضي قدمًا. ولكن التجاوز حرب نمارسها مع أنفسنا. حربًا تستنزفنا من الداخل. صدقيني أنا أحاول.

ربتت على ظهري وأخبرتني: هل تريدين دفن نفسك لأجله؟

أجبت وأنا أبكي: يا عمة وجدان أنتِ لا تعلمين ما كان يمكنني أن أفعل؟

حدثتني: ماذا كنت ستفعلين؟

أجبت وأنا في نوبة هيستريا: كنت سأفعل أي شيء لأجله، فقط لو كان نجا، كنت سأفعل أي شيء لشفائه.

حاولت التهدئة من حالي: صغيرتي، انظري إليّ هل مت وراء زوجي؟ بالطبع حزنت وكنت أتمنى الموت، ولكن في النهاية، الحياة أستمرت، ولم تتوقف على رحيل أحد. أخبرك يا صغيرتي أن تتحرري، حرري روحك، أنتِ تستحقين أن تعيشي، أن تحبي، وأن يكون لك عائلة أيضًا.

حاولت مسح دموعي: سأحاول، روحي تؤلمني يا عمة، أشعر أني أتمزق.

ربتت على ظهري وأخبرتني: فليهون الله على قلبك صغيرتي. لا تحاولي بل أفعلي ذلك، في النهاية يجب أن تستمري بحياتك.

لم أعلم ماذا أقول لا يوجد ما أقوله. أحيانًا يأتي عليك وقت حتى الكلام يبدو ثقيلًا.

هل سنحصل في النهاية على ما نستحق؟

الفصل السابع عشر

الهيدرا

بعد مرور فصل الخريف. وجاء الشتاء مجددًا. الأيام تمضى سريعًا دون أن ندري كيف مرت. يتعافى المرء بعودة الشتاء والأيام المُمطرة ورائحة الأرض بعد المطر. أحب الشتاء والليالي الممطرة. الهواء البارد ومنظر قطرات المطر. . ومنظر الطريق ليلًا مع الإنارة الخافتة. . ومنظر السماء المليء بالغيوم الجميلة. .

ما أجمل الشتاء والمطر والليالي الطويلة الدافئة. مرحبا فصلي المفضل فصل الشتاء. التقينا مجددًا، وأنا التي كنت أظن لن نلتقي.

في مقهى، كنت جالسة أحتسي قهوتي المفضلة، أذا أتيت أنت وقمت بسحب المقعد المجاور ليّ وجلست تنظر إليّ.

سألتك بدهشة: ما الذي أتي بك إلى هنا؟ ظننتك رحلت؟

أجبت بهدوء: الرحيل عنك لعنة، والقرب منك لعنة. لا أدري كيف أهربك منك في الحالتين. علميني الهروب كما تهربين.

سألتك بانفعال: ماذا تريد بصدق؟

أجبت بهدوء يستفزني: أريد قهوة مالحة، مثلك تمامًا.

طلبت النادلة وأخبرتها عن طلبك، ولكني استعجبت لك، كيف لشخص عاقل أن يشرب قهوة مالحة. وهل بدر شخص عاقل ؟ لا أعتقد هذا.

بعد صمت طويل بينا قمت أنت بالحديث: قرأت مرة مقولة تقول" جاور من يجعل قلبك يزهر كل مرة."

ثم صمتَ وتابعتَ: ولكنك لا تجعلين قلبي يزهر، أنتِ تقتلين كل البراعم. أنتِ عاصفة هوجاء تقتلع الأخضر واليابس.

أجبت بهدوء: حسنًا. لن أجادلك أنتَ محق في هذا.

لم أرد أن أتجادل معه، لا أريد جدالًا حقًا. ولكن هل يصمت لا بالطبع، لقد زاد هدوئي من حدته.

سألتني بانفعال: هل أنتِ دائمًا باردة أم فصل الشتاء جعلك هكذا؟

أجبت بهدوء، يستفزك: أنا طفلة الجليد يا عزيزي، ماذا تظن؟

أخبرتني بهدوء: بل، أنتِ هيدرا.

استغربت ردك وسألت: ما هي الهيدرا؟ هل هذا جيد أم سيئ؟

أجبت ممازحًا: أحيانًا يكون الجهل، أكبر نعمة.

سألتك بانفعال: ماذا تقصد؟ ماذا تقصد بهذا الكلام؟

أجبت ممازحًا: حسنًا، لا تغضبي يبدو وجهك مثل حبة الطماطم عندما تغضبين.

ثم أضفتَ: الهيدرا هي كائن أسطوري. وجاء في الأساطير الإغريقية القديمة أن حيوان الهيدرا كانت تعيش في المستنقعات بالقرب من مدينة تسمى ليرنا بالقرب من أرجوليس، وكان لديها جسم ثعبان والعديد من الرؤوس اختلفت من نسخة إلى نسخة.

ففي بعض نسخ الأسطورة كانت 5 رؤوس ووصلت في البعض الآخر لمائة رأس ولكن يمكننا أن نقول أنها عشرة رؤوس، و إذا قطع لها رأس فإنه ينمو لها رأس آخر وفي بعض الروايات ينمو لها رأسان ولا يؤثر فيها سلاح مهما كان لأنها قادرة على معالجة نفسها وكانت قادرة على قتل أي رجل أو وحش وكانت تهاجم قطعان الغنم... إلخ، وجاء هرقل وقتلها بمساعدة أيولاس.

و تقول الأسطورة أن لديها القدرة على التجدد إذ أنها – وفقاً للأسطورة – ينمو لها رأس جديد في كل مرة يقطع لها رأس

ولها نفس الاسم. ويعتقد بأن الذي اكتشف الهيدرا الحقيقة إنما سماها هيدرا تيمناً بالأسطورة حيث لديهما القدرة على التجدد والهيدرا الحقيقة لديها من 5 إلى سبعة لوامس (قرون) بينما الأسطورية لديها عدة رؤوس أيضًا.

و في أساطير العرب، العُدار دابة في اليمن لها شيء أعظم من رؤوس عدار اليونان.

سألتك وحاولت أن أكتم غضبي وانفعالي، وإلا كنت قمت بقتلك: لماذا الهيدرا؟ هل أشبهها كثيرًا؟

أجبت بهدوءٍ: لأنك قادرة على قتل أي رجل بابتسامتك فقط.

كيف يمكننك أن تحول كل شيء لصالحك؟

قمت بسؤال مُغايرًا بسرعة: وهل الهيدرا حقيقة؟

أجبتَ: الفرق الوحيد بينكما أنها تهاجم، وأنتِ تهربين.

سألتك بجدية: بربك بجدية، هل هي حقيقة؟

أجبت: بالطبع حقيقة.

الهيدرا أو العُدار (مفردها عُدارة) هي حيوان من أكثر الجوفمعويات شيوعًا ويكثر في مياه البرك العذبة، ويمثل حيوان

الهيدرا نموذجًا بسيطًا لتركيب الحيوان الجوفمعوي أسطواني الجسم. يبلغ طوله 2-20 مم ويلتصق بالأعشاب المائية وله 9 رؤوس، يلتصق بالأحجار بواسطة مادة لزجة تفرزها قاعدة الحيوان القرصية، وتوجد فتحة الفم على قمة ارتفاع يعرف بالمخروط الفموي Oral Cone ويحيط بفتحة الفم عدد من اللوامس الطويلة يتراوح عددها من 6-8 لوامس. يتركب جدار الجسم في حيوان الهيدرا من طبقتين هما الاكتودرم والإندودرم يوجد بينهما مادة جيلاتينية تعرف بالميزوجليا وتتكون طبقة الاكتودرم من أنواع الخلايا الآتية: ـ خلايا طلائية عضلية ـ خلايا معوضة ـ خلايا حسية ـ خلايا عصبية ـ خلايا تناسلية – خلايا مخاطية ـ وخلايا لاسعة. أما الإندودرم فتتكون من خلايا غذائية عضلية. ليس بضخمة الأسطورة ولكنه موجود.

أخبرتك: أنت باحث جيد.

أجبت: كيف أكون باحث جيد، ولم أجد في قلبك مكان بعد؟

هممت بالأنصراف: لقد تأخرت العمة وجدان في انتظاري.

سألتني: هل ستهربين إلى الأبد؟ لن أقدر أن أركض طوال حياتي، سيأتي يوم وأغادر.

أجبتك: حسنًا. غادر من الآن، إلى اللقاء.

وتركتك وذهبت، لم تكن تنتظرني العمة وجدان، لقد كذبت كنت أريد الهروب وحسب. أهرب منك، وأشعر أني أعود إليك مجددًا. ماذا يحدث لو ملّلت ورحلت، لا أعلم ماذا أفعل حقًا.

الفصل الثامن عشر

العناد

عندما أكون حزينة أذهب إلى العمة وجدان. في الواقع أنا دومًا حزينة، ولكن أذهب إليها عندما أكون تائهة. أن أكون تائهة فهو أسوأ من الحزن، على الأقل الحزين يعرف ما يحزنه. ولكن التائه لا يعلم، هو فقط مشتت.

ذهبت إليها وحدثتها: ماذا أفعل؟

نظرت ليّ في استغراب: ماذا تفعلين في ماذا؟

أجبت بملامح بائسة: لا أعلم. لا أشعر أني بخير.

أخبرتني بعطف: لا تكوني عنيدة. أتركي قلبك يختار.

سألتها: كيف ليّ أن أختار، أنا مشتتة كلّيًا وبالكامل.

أخبرتني بحنوٍ: ارتكبي أخطاء، وتعلمي منهم، وعندما تؤلمك الحياة، لأنها ستؤلمك. تذكري الأذى. الألم جيد. ويعني ذلك أنك خرجتي من ذلك الكهف.

أخبرتك بحزن: سأشعر بالخيانة. لا أستطيع.

أجبتِ بحزم: أنتِ لست مدينَة بأي شيء لأي أحد، لا أرى أي خيانة، افعلي ما يمليه عليك قلبك لأنك لا تدينين بحياتك لأي شخص.

أخبرتك وسأبكي، لا أعلم لِمَ أبكي دائمًا عندما أراها: لا أعرف، حقًا لا أعرف.

أخبرتني: أنتِ عنيدة يا فتاة، أخبرك من الآن، أن لا تخسري شيئًا سوف تندمين عليه لاحقًا.

سألت بدهشة: ماذا تقصدين؟

أخبرتني: سأقص عليك قصة صغيرة، وأتمنى أن تفهمي.

ثم أضافت: يحكى أن كان هناك جزيرة تعيش عليها جميع المشاعر الإنسانية. وفي يوم من الأيام هبت عاصفة شديدة على تلك الجزيرة. وكانت الجزيرة على وشك الغرق. كل المشاعر كانت خائفة جدًا. إلا شعور واحد. وهو الحب كان مشغولًا بصنع قارب ليهرب بجميع المشاعر قبل أن تغرق الجزيرة. وبعد أن انتهى الحب من صنع القارب. صعدت جميع المشاعر على متن القارب إلا شعور واحد. نزل الحب ليرى من هو الشعور الذي تخلف عنهم. وفي دهشة وجده شعور العناد. حاول الحب أن يقنع العناد بالهرب معهم. في الوقت الذي كانت فيه المياه ترتفع أكثر. ..وأكثر. ولكن تمسك العناد بموقفه، ولم يرد الذهاب معهم، جميع المشاعر طلبت من الحب أن

يصعد إلى القارب، ويترك العناد قبل أن تغرق الجزيرة. .. ولكن الحب خلق ليحب.

هربت جميع المشاعر في النهاية ولكن مات الحب غرقًا مع العناد على الجزيرة.

لذا فالعناد يقتل الحب دومًا. ادفني عنادك يا فتاة، لا تجعلي عنادك يسيطر عليك. ابنتي لا أريدك أن تخسري أكثر، يكفي ما خسرته، تابعي حياتك، ما زلت أكرر لك هذه الجمل طوال الخمس سنوات. ولكن لا أعلم هل لديك عقل أم لا؟

أجبت: ولكن. ..

ولكنها قاطعتني: لا تقولي الحب، الحب وحده ليس كافيًا، لم يكن الحب كافيًا أبدًا، هناك أمورًا أهم بكثير من الحب.

سألت: وما هي؟

أجابت: الاحترام صغيرتي، ماذا إن كان هناك حب، ولكن لا يوجد احترام. هل سيستمر هذا الحب؟ بالطبع لا. ستجدين من يحبك، ولكن نادرًا جدًا من يحترمك. ويا حظك إن وجدت من يحبك ويحترمك معًا. أخبرك من امرأة تعدت الخمسين عامًا، أن لا أحد يبكي أحد كل هذه المدة. ولا أحد يحاول

لكسب حبك، إلا أذا كان يحبك بصدق. المشكلة هنا صغيرتي، أن هناك من يلعب بقلوب الناس، كما يلعب الرجال كرة القدم، لا يعرفون عزيزًا ولا غاليًا. وقت الخصام تجدينه مثل النمر المفترس، يحاول إلتهامك وتمزيقك أربًا أربًا. أبحثي لقلبك على من يهدئ كل العواصف بداخلك.

بكيت وقلت: وجدته، لكنه رحل. يبدو أني ملعونة يا عمة وجدان.

أجابت بغيظ: أذهبي لبيتك، تتكلمين كأن الله لم يخلق غيره، تجاوزي يا فتاة، لقد انتهى.

بالفعل انتهى يا عمة وجدان، وأنا أنتهيت أيضًا. لم يعرف الدفء مكان في قلبي منذ أن رحل. تظن أني لم أحاول، أنا أحاول يوميًا.

ولكن كيف من يتذكر يوميًا أن ينسي. يقولون أن الموت به رحمة عن الغياب، على الأقل لن تراه مجددًا. وأنا أخبركم أن الغياب أهون، الغائب يمكن أن يعود، وأنت ستقرر هل ستقبل به في حياتك أم سترفضه؟ إنما الذي يموت، كيف ستعاتبه، كيف سيعود مجددًا؟ لن يعود.

الفصل التاسع عشر

بريرة

أردت الذهاب للبحر، أشعر بالسكينة هناك. أشعر أنه يتحدث معي ويواسيني. بالمناسبة في الثقافة الهندية يرمون رماد المتوفي في النهر، لكي يشعر بالخلاص. هل لو رميت نفسي في البحر الآن، سأشعر بالخلاص؟ سيكون خلاصًا أبديًا.

أمزح لن أفعل ذلك، حتى لو أردت. ربما هناك سبب لحياتي. كل ما أتمناه حقًا أن أترك أثرًا جميلًا. عندما أغادر، أغادر كما الفراشة، أترك أثرًا طيبًا في نفوس الجميع. هناك تساؤلًا يأتي دائمًا في خاطري. لماذا لا نكتب في خانة الإنجازات كيف تركنا البيت القديم؟ وكيف انتقلنا من مدرسة إلى أخرى؟ كيف اكتشفنا الخدعة تلك؟ كيف خبأنا مشكلتنا عن قلوب أمهاتنا؟ وتحملنا المسؤولية وحدنا بهدوء. كيف تصرفنا بأول يوم جامعة؟ وكيف تصرفنا بشجاعة عندما أجبرتنا الظروف أن نسلك طريقاً لا نحبه؟ كيف حضنا حزن صديق؟ وكيف قلنا أول كلمة عزاء؟ وأول كلمة (مبارك). لماذا لا نضع في خانة الخبرات تحديدًا كيف صبرنا على غياب الأحباب وموت الأقرباء؟

وكيف سامحنا خذلان البعض؟ لماذا لا نضع في خانة المهارات الصبر والسماح والثبات والقوة رغم الألم واليأس. الشهادات والأوراق أقرب إلى الحائط من ذاتنا نضعها في برواز أنيق. ." هذه المواقف وحدها التي صنعتن."

كنت جالسة بمفردي أستمتع بالبحر. إذ جئت أنت، وجلست بجواري. لم تتحدث فقط ظلّلت صامتًا.

قاطعت هذا الصمت كما أفعل دومًا: كيف حالك؟

أجبت: بخير يا بريرة، وأنتِ؟

ابتسمتُ وسألت: ماذا، هل تقصد أن لا تقول اسمي؟

أجبت بملامح حزينة: لا، ولكنك تشبهينها كثيرًا، يا يقين.

أخبرتك بهدوء: سأحب أن أسمع الحكاية.

أخبرتني: الحكاية مؤلمة قليلًا.

أخبرتك: لا بأس لن تكون أكثر إيلامًا من حياتي.

أجبت: ولا حياتي.

ثم أضفت:

يحكي لنا الزمان قصة أَمَة مملوكة. وكم في ذلك الزمان من مماليك. لكن بريرة لها قصة. قصة الحرية، قصة الحب، قصة الإباء. قصة تثبت في تفاصيلها روعة هذا الدين، وسماحته، وترد على دعاة الحرية النسائية المطلقة، التي لا تخطم بخطام الشريعة، ولا توزن بميزان العدالة، و إنما هي دعوى الشيطان كساها من زخرف القول غرورا. وملخص قصة بريرة أنها أرادت أن تتحرر من رق العبودية، وأن تنطلق في آفاق الحرية، تملك نفسها، وتملك قرارها، وترفل بقدرتها الكاملة لتقرير مصيرها، ورسم مستقبلها. وهكذا كان، فقد اتفقت مع مالكيها من الأنصار على أن تكتب لهم، فاشترت نفسها، بتسع أواق من الفضة، تدفعها سنويا، في كل سنة أوقية. ولما أبرمت الاتفاق.

عمدت إلى نبع الحنان، وحصن الأمان، فقصدت بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وحدثت زوجه عائشة رضي الله عنها، وأخبرتها بحاجتها إلى أن تعينها. فدفعت عائشة رضي الله عنها ما اتفق عليه إلى مواليها ثم أعتقتها. وها هي بريرة رضي الله عنها تتنفس عبير الحرية، وتستنشق عطرها، وتبدأ حياتها من جديد، بثوب جديد، ونفس جديدة. فلما تأملت حالها رأت أنها زوجة لعبد

مملوك، والإسلام يعطيها حرية اتخاذ القرار، فلها أن تبقي علاقتها الزوجية كماهي، على حالها السابق، ولها أن تنقض الرباط، وتحل الوثاق، فقررت بحسم وجزم أن تنهي حياتها الزوجية. وهكذا كان ،لأنها لم تكن تحب زوجها، ولا تحمل في قلبها له مودة ولا رحمة. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: إن زوج بريرة كان عبدًا يقال له مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعباس: يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة

مغيثا ؟ رواه البخاري.

فلما رأى مغيث إصرار بريرة على صده، وأنها عازمة على تركه، استشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم، فشفع له عندها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو راجعته، فإنه زوجك وأبو ولدك. قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: إنما أنا أشفع.

قالت: لا حاجة ليّ فيه.

وفي هذه القصة فوائد جمة، فقهية ودعوية، نستل منها ما يفيدنا في حالنا، وواقعنا، ومن ذلك أن نبينا صلى الله عليه وسلم تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثا! تعجب وهو يرى حبا يقابل ببغض، فلم يكن حبا

متبادلا، فلم ينكر، ولم يشدد، بل أفسح للقلوب أن تعبر عما في جوفها، ولم يعنف أحدا منهما، لأن الإسلام جاء بها بيضاء نقية، واقعية، تتلمس العواطف وتعرف قدرها، ولم يأت ليكبت أحاسيس الناس، ولا ليضيق عليهم في التعبير عنها. وفي القصة أن من أعظم مصائب الحب أن يكون من طرف واحد، فيحب أحد الشخصين الآخر، والآخر يبغضه. و إن كان ذلك هو الأكثر الأغلب، ومن ثم وقع التعجب؛ لأنه على خلاف المعتاد. فديننا يقر الحب، وينشر الحب، لكنه الحب العفيف، الطاهر، ليس حبًا يقود إلى الرذيلة، ويهتك ستر الفضيلة.

أجبتُ بتأثر: يا لها من قصة رائعة، حقًا جميلة.

أخبرتني: وأنا أعجب من بغضك يا بريرة ليّ، وأنا لست مغيثًا.

لم أتحدث، لم أستطع التحدث. ماذا أقول، لا أملك جوابًا.

أخبرتني: لا بأس، لا داعي لقول أي شيء.

أعطيتني رسائل وأخبرتني ألا أفتحها، إلا أن غادرت.

الفصل العشرون والأخير

رسائل متأخرة

أعطيتني الرسائل وغادرت، حتى بدون أن تقول وداعًا أو إلى اللقاء. كانت أول رسالة مكتوب عليها يقين، أظن أنها منك، كان محتواها كالتالي:

عزيزتي يقين

قلتِ ليّ بأنكِ لم تتلقي رسالة حبٍ من قبل، فها أنا أكتب إليكِ

فقد وقعت في غرام يديكِ التي تقوم بتناول القهوة، ثم بعينيكِ البنيتين، بكل صدق أقول لكِ... بأننا ننتمي إلى عوالم مختلفة لكنها عوالم يمكن أن تلتقي.

هذه العوالم التي تشبه تلك النجوم التي يمكن أن تخترق بعضها البعض ولكن لا يمكنها أن تمضي مع بعضها.

يقين، أنتِ إنسان لن أنساه إلى الأبد"

أظن إنني وصلت للطريق الذي قال عنه محمود درويش:

"لقد استنزف الطريق الطويل مشاعري وتوقعاتي. .لم أعد الآن أشعر بشيء ولا أتوقع شيئا.

- لَم يعُد هناك مَا يُسمى بِالخسائر بِالنسبة لي، كُل شيء مُرحب بِحدوثه"

هل صفعك أحدهم فجأة صفعة قوية؟

هذه الصفعة هي الحب، وأنتِ صفعتني ولكني أشعر بمزيد من الأذى من تلك الصفعة عندما علمت أنك ما زلتِ تحبين شخص آخر. كنت أعتقد أن الحب سيجعلني مزدهرًا لكنه دمرني.

أتعرفين قصة الشاعر محمود درويش وريتا؟

محمود درويش وحبيبته الإسرائيلية ريتا التي كتب عنها -:

-"إنّي أُحبُّكِ رغم أنف قبيلتي ومدينتي وسلاسل العادات، لكنني أخشى إذا بعت الجميع تبيعيني وأعودُ بالخيبات"

- و حين اكتشف بأنها من مخابرات الموساد الإسرائيلي عبّر عن صدمته وكتب:

"شَعرتُ بأن وطني احتلَّ مرة أخرى"

- وكتب أيضًا -:

"رُبما لم يكن شيئًا مهمًا بالنسبة لك يا ريتا، لكنهُ كان قلبي"

"لا تستحقين قصيدة حتى لو كانت مسروقة"

وأنا أقولها الآن، ربما لم يكن شيئًا مهمًا بالنسبة لك يا يقين، لكنه كان قلبي.

ريتا كانت هزيمة محمود درويش، وأنتِ هزيمتي.

ويقول دوستويفسكي

لا أعرف ما هو الحب؟

لكن إذا كان الحب هو الرغبة برؤيتك بأستمرار، وعندما أراك لا أرى أحد في هذه الدنيا.. وأريدك ليّ فقط، إذن أعتقد جازمًا إني أحبك.

وفي النهاية

عزيزتي يقين

يبدو أننا سنفترق إلى الابد.

أريد أن أخبرك بمكنون قلبي.

أنتِ محط غرامي.

لقد وقعت في غرامك.

ولكن يبدو أنك لا تبالي بي.

لم أستطع قول وداعًا، لذلك كتبتها.

الكتابة يا سيّدتي مُرّة، بل مُرّة جدًا، أنتِ لا تعرفين معنى أن تُمسكِ قلمًا وتوثّقي هزائمك.

لم أدري بأن دموعي تساقطت على صفحات هذه الرسالة، ولم أدري بقلبي الممزق بعد أن قرأتها. يبدو أني خسرتك يا بدر.

لم يخذلني وداعك، خذلني وقت وداعك نفسه، كان معتمًا لم أكن استحقه.

طويت هذه الرسالة وفتحت الرسالة الأخرى.

كان أولها كالتالي كنت أظنها منك ولكنها لم تكن.

بدأت بالقراءة وأنا أبكي :

إلى نبض قلبي

يجب أن تصلك هذه الرسالة بعد موتي.

و إن لم تصل أعلمي أنه أراد أن يمتلك قلبك، وليس إشفاقًا منك.

نبض قلبي.

الفراق عنك صعب، ولكني لم أستطع رؤيتك تعانين.

أتمنى أن تسامحيني وتغفري، أنتِ دومًا تغفري.

عندما كنت مسافرًا إلى بلد آخر، حدث معي حادث، كنت غريب تمامًا.

أنتِ تعلمين إنه من أفضى بحياتي، ولكن لا، كنت ما أزل حيًا.

ولكن حيًا كالأموات يا زهرتي فأي حياة تلك، لم أرد لك أن تعاني.

وأنا أعلم جيدًا أنك لن تتركيني، ستموتين معي ولن تتركي.

لم أستطع أن أعذبك معي.

ووجدتني أسرة لطيفة في الواقع هم منّ نقلوني للمشفى.

كنت وحيدًا وغريبًا في بلد أجنبي.

وهم فقط أهتموا بي وساعدوني.

تريدين معرفة طريقة موتي.

كانت الطريقة الأنبل على الأطلاق.

ملحوظة: لست أنا من أكتب الرسالة، أنا أقولها فقط، وأحد الممرضين كتابها ليّ.

أعلم أن عقلك ساذج وصغير وستظنين أني ما زلت حيًا.

هذه الأسرة كان لديهم شاب مريض بالقلب، وكانوا ينتظرون أي متبرع، لأن حالته خطيرة وكان سيموت في غضون شهرين.

تخيلي يا زهرتي انتظار شخص ليموت لأكمال حياة شخص آخر.

سيكون ثقيلًا ما أقول. لقد تبرعت بقلبي لهذا الشاب.

كنت سأموت في النهاية، لماذا لا أختار الطريقة الأكثر نبلًا.

أقول لك، أهديته مفاتيح قلبك. أردت أن تستمري بحياتك من دوني. قلبه الذي سيحبك هو قلبي.

ليس له سلّطة على قلبه. لا تشفقي عليه أمنحيه الحب وحسب.

إن لم يسلمك هذه الرسالة أعلمي أنه خاف، أن تكرهيه، أو تعطفين عليه.

وأنتِ قلبك عطوف جدًا، أنا أعلم هذا جيدًا.

لا تلعنيني يا دُمتي. أعرفك عندما تغضبين.

مع خالص حبي خالد.

أغلقت الرسالة وقد محوت كل حبرها من شدة بكائي.

صرخت وبكيت إلى أنّ تمزقت حبالي الصوتية. كنت في حالة هيستريا، سبحت في البحر وكنت أريد الغرق، ولكن حتى البحر لا يريدني.

أنفجرت في البكاء والحديث :

اللعنة عليك يا خالد واللعنة عليك يا بدر. أتظنون إنني دُمية، كيفما شئتما تلعبان بها. وأنت يا خالد ألعنك وألعن طريقتك الأنبل في الموت. يا أيها الوغد، كنت سأعيش خادمة لك ولن أسئم، وأنت ماذا فعلت؟ جعلتني دُمية بين يديك، لقد أحببتك، أيها الغبي. لن أسامحك، لن أسامحك هل تسمع؟ وبدر المخادع الآخر، أكره وأكرهك أيضًا يا خالد. لقد خدعتموني، لقد جعلتم مني أضحوكة. أتمنى أن تتعفن في الجحيم. لقد دمرتني وحطمت قلبي، وثقتي.

كيف أمكنك أن تفكر أني سأتخلى عنك. أيها الوغد لا سامحك الله ولا غفر لك. لا، لا أستطيع، فليسامحك الله ويغفر لك. لا أستطيع حتى كرهك، أنت نقطة ضعفي. ولكني لم أتخيل أن تفعل هذا بي.

أن ترسل أحدًا لأقع في غرامه، خدعة رخيصة. لماذا أرسلته، لقد خدعتني وحطمت قلبي وثقتي. وأخبرني أن لا سلّطة له على قلبه ولكني لم أصدق. صوتي اختفى، لم أعد استطيع أن أتحدث فقط في حالة صدمة. من أنا لكي لا أغفر لك، فليسامحك الله ويغفر لك.

وشكرًا لأنك حررتني. كان أنتصارًا ولكنه كان أنتصارًا حزينًا جدًا

كان هناك رسالة أخرى، لم أرد أن أفتحها. سأرميها في البحر، مهما كان محتواها لا يهمني. هل سأقابل بدر مجددًا؟ لا أعلم ربما.

تمت بحمد الله

ربما هناك جزء ثان ربما

تمت بتاريخ 10/11/2023